

التَّفَاوُلُ فِي زَمَنِ الْكَرُوبِ

تَلَمَّسُ لِأَهَمِّ سَمَاتٍ مِنْهُجِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي عَرَضِ مَوْضُوعِ التَّفَاوُلِ

د. عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِ
رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الأمير نظام

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

ح داررسالة البيان للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العسكر، عبد الله محمد عبد الله

التفاؤل في زمن الكروب: تلمس لأهمّ سمات منهج القرآن
الكريم في عرض موضوع التفاؤل . / عبد الله بن محمد عبد الله
العسكر - الرياض، ١٤٣٩هـ

ص ١١٢؛ ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٦٥٩-٦-٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- التفاؤل

أ. العنوان

١٤٣٩/٢٠٤٧

ديوي ٤١٥، ٢٢٩

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٢٠٤٧

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٦٥٩-٦-٨



مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو النبراس الذي يضيء الدروب المظلمة، والمشعل الذي يجلي غياهب السبل الموحشة. ومهما جلت المصائب وعظمت الكوارث فإن في كتاب الله ما يُحيلها إلى برد وسلام؛ لأنه نزل من لدن حكيم خبير، فهو تعالى العالم بحال خلقه وما يُصلح شؤونهم.

إن التخبط الذي نلحظه اليوم في حياة البشرية ما هو إلا نتيجة حتمية لتنحية القرآن عن دور الريادة والقيادة.

فالغرب مثلاً بما يمتلكه من إمكانات ضخمة وحضارة هائلة هو اليوم يعاني من أزمات أخلاقية وأمراض نفسية لا تخفى على أدنى متابع!

لذلك كان لزاماً علينا أن نسرع الفئحة إلى كتاب الله ونهتدي بهديه، لأنه السبيل الوحيد لتقويم المعوج وإصلاح الحال.

ولما كانت الدنيا مجبولة على الأكدار، مفطورةً على التنغيص، والمرء فيها يعتريه ما يعتريه من الهموم والأحزان بسبب هذه

المكدرات؛ لما كان ذلك كذلك؛ جاء القرآن ليأخذ بيد المؤمن إلى سبيل النجاة وشاطئ الأمان بما فيه من آيات تحيي في نفسه الأمل، وتبعث في قلبه قرب الفرج، وأن الخير آتٍ ولو بعد حين!

ومن هنا جاء هذا البحث محاولة لإيضاح منهج القرآن في طرح موضوع التفاؤل، وتلمساً لآياته التي تبعث في النفوس المكلمة والقلوب المحبطة باعث الأمل الذي يحيل الأتراح إلى أفراح، ويجلي حكم الله في كل نازلة بما يُطمئن قلب المؤمن، ويجعله مسلماً لأمر الله، راضياً تمام الرضا عن ربه ومولاه، متيقناً أتم اليقين أن الخير فيما قضاه الله وكتبه.

وسوف نستعرض - بحول الله - بعضاً من الآيات في كتاب الله التي تدعو إلى التفاؤل، وترشد إلى المنهج الصحيح الذي يجب أن يكون عليه المؤمن في أوقات الأزمات، سواء أكان ذلك على المستوى الشخصي أم على مستوى الأمة.

والهيكل العام لهذه الدراسة سيكون ابتداء بالحديث عن معنى التفاؤل ومشروعيته وأهميته، ثم يكون التركيز بعد ذلك على صلب موضوع الدراسة، وهو الحديث عن أسلوب القرآن في تربية النفوس على التفاؤل، ويندرج تحت هذا المبحث المطلبان الآتيان:

المطلب الأول: إيراد نماذج من تفاؤل الصالحين.

المطلب الثاني: إشاعة التفاؤل في وقت الأزمات والمعضلات،
وذلك من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: التفاؤل بالنصر على أعداء الأمة.

الفرع الثاني: التفاؤل في حال الفقر وضيق العيش.

الفرع الثالث: التفاؤل عند فقد الأولاد وموتهم.

الفرع الرابع: التفاؤل عند عدم الوفاق الزوجي.

الفرع الخامس: التفاؤل بمغفرة الله، وعدم اليأس من رحمته.

والله المسؤول وحده أن يأخذ بأيدينا إلى ما فيه الخير لنا في أمور
دنيانا وأخرانا، ويملاً قلوبنا أنساً بكتابه، وتسليماً لأمره، ويقيناً
بموعوده.

كما أسأله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله
وخاصته، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على النبي
الكريم وآله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

معنى التفاؤل ومشروعيته وأهميته

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى التفاؤل.

المطلب الثاني: مشروعية التفاؤل .

المطلب الثالث: أهمية التفاؤل.

المطلب الأول: معناه التفاؤل

وفيه فرعان:

الفرع الأول: معنى التفاؤل في اللغة.

الفرع الثاني: معنى التفاؤل في الاصطلاح.

الفرع الأول: معناه التفاؤل فيه اللغة:

التفاؤل مصدر للفعل (تَفَاءَلَ)، يقال: تَفَاءَلْتُ بِهِ، وَتَفَاءَلْتُ بِهِ^(١).
والتفاؤل صيغة (تفاعُل)، وهذه الصيغة لها أكثر من دلالة، وهي هنا تعني التظاهر بالفعل دون حقيقته، وهو التكلف في الفعل^(٢).
والتفاؤل من حيث المعنى العام هو الفأل، وجمعه: فؤول، وأفؤول^(٣). والمراد به: قول أو فعل يستبشر به.
والتفاؤل ضدُّ التشاؤم، كما أن الفأل ضدُّ الطيرة. وهذا هو الغالب في معناه، وقد يطلق الفأل على ما لا يجب المرء، فيقال: لا فأل عليك، بمعنى: لا ضير عليك، ولا شرَّ عليك^(٤).

(١) لسان العرب لابن منظور ٥١٣/١١، تاج العروس للزبيدي ١٤٢/٣٠، (مادة فأل).

(٢) شذا العرف ص ٣٤.

(٣) المحكم لابن سيده ٤٠٥/١٠، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ١٣٤٥، المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية) ٦٧١/٢، (مادة فأل).

(٤) لسان العرب ٥١٣/١١، القاموس المحيط ص ١٣٤٥، المصباح المنير للفيومي ٦٦٤/٢، (مادة فأل).

الفرع الثاني: معنى التفاؤل في الاصطلاح:

تعددت التعريفات لمفهوم التفاؤل حسب نظرة كل باحث حول هذا الموضوع^(١)، ومن أحسن ما وقفت عليه من تلك التعريفات ما ذكره الأستاذ عبد المعطي مخيمر؛ حيث عرف التفاؤل بأنه: «صفة تجعل توقعات الفرد وتوجهاته إيجابية نحو الحياة بصفة عامة، يستبشر الخير فيها؛ ويستمتع بالحاضر، ويحدوه الأمل في مستقبل أكثر إشراقاً، وأحسن حالاً»^(٢).

(١) انظر مقالاً بعنوان: (التفاؤل والتشاؤم: مفهومها وأسبابها) للدكتورة فضيلة عرفات على الشبكة العنكبوتية:

www.alnoor.se/default.sap.

(٢) السابق.

المطلب الثاني: مشروعية التفاؤل

لما كان التفاؤل صفة إيجابية وخلقاً كريماً جاء الإسلام ليعزز هذه الصفة ويؤكد عليها؛ وذلك أن النبي ﷺ أخبر أنه إنما بعث ليطمئن مكارم الأخلاق^(١).

وقد كانت العرب قديماً يتشائمون أو يتفائلون بالطير إذا أرادوا سفراً، فإن طار يمنيةً سافروا، وإن طار يسرةً رجعوا!

وربما تطيروا بالأحجار وكتبوا عليها كتابات مثل (افعل، لاتفعل!)، وبنوا عليها ما يُستقبل من أمرهم. وكل هذه من هرطقات الجاهلية التي كانت سائدة عندهم قبل الإسلام.

عن عكرمة رحمه الله قال: كنت عند ابن عباس فمرَّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال ابن عباس: ما عند هذا خيرٌ ولا شرٌّ!^(٢)

وكان عقلاء العرب ينكرون ذلك، ومنهم الشاعر لبيد بن ربيعة حيث يقول:

(١) ثبت ذلك في حديث أبي هريرة بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق». رواه الإمام أحمد في المسند ٥١٣/١٤ رقم (١٩٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد ١٠٤/١ رقم (٢٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان ٣٥٢/١٠ رقم (٧٦٠٩)، وصحح إسناده ابن عبد البر في التمهيد ٣٣٣/٢٤، والعلجوني في كشف الخفاء ٢١١/١، والألباني في السلسلة الصحيحة ٤٣/١ رقم (٤٤).

(٢) تفسير القرطبي ٢٦٦/٧، روح البيان للبورسوي ٣/١٦٤.

لعمرك ما تدري الضواربُ بالحصى

ولا زاجراتُ الطير ما اللهُ صانعٌ^(١).

وحين نتأمل نصوص السنة النبوية نجد أحاديث كثيرة مروية عن النبي ﷺ تحت على التفأول، وتخذر من التشاؤم والتطير. ومما جاء في هذا الباب:

١ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل». قالوا: وما الفأل؟ قال: «كلمة طيبة»^(٢).

٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمع كلمةً فأعجبته، فقال: «أخذنا فألنا من فيك»^(٣).

٣ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع: يا راشد، يا نجيح!^(٤).

(١) ديوان لبيد ص ٥٧، الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧٩، لسان العرب ١٠/٢١٥ مادة (طرق).

(٢) رواه البخاري ٧/١٣٩ رقم (٥٧٧٦)، ومسلم ٤/١٤٧٦ رقم (٢٢٢٤).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ١٥/١٦ رقم (٩٠٣٩)، وأبو داود ٦/١٠ رقم (٣٩١٧)، والبيهقي في شعب الإيثار ٢/٣٩٩ رقم (١١٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/٢٢٥ رقم (٧٢٦).

(٤) رواه الترمذي ٤/١٦١ رقم (١٦١٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح، والطبراني في المعجم الصغير ١/٣٣١ رقم (٥٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/٨٩٠ رقم (٤٩٧٨).

وقال ابن عون عن ابن سيرين: كانوا يستحبون الفأل، ويكرهون الطيرة^(١).

٤ عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، ورئي بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمه رئي كراهة ذلك في وجهه. وإذا دخل قرية سأل عن اسمها فإن أعجبه اسمها فرح بها ورئي ذلك في وجهه، وإن كره اسمها رئي كراهية ذلك في وجهه^(٢).

٥ عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير اسم (عاصية) وقال: «أنت جميلة»^(٣).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكلها تؤكد عناية الشريعة بجانب الفأل، والتحذير من التشاؤم والتطير، وكل ذلك له أثره البالغ في حياة الفرد والمجتمع، كما سنذكر في المطلب القادم بحول الله.

وهنا ملحظ ينبغي الانتباه إليه، وهو أن التفاؤل الذي دعت إليه الشريعة وأقرته هو ما يبعث على المهمة، وينشر العزيمة، ويولد

(١) الاستذكار لابن عبد البر ٨/١٣٥.

(٢) رواه أبو داود ٦/٦٢ رقم (٣٩٢٠)، وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري ١٠/٢١٥، والقسطلاني في إرشاد الساري ٨/٣٩٨.

(٣) رواه مسلم ٣/١٦٨٦ رقم (٢١٣٩).

الحماسة في النفس لمزيد من العمل والعطاء، وليس معناه التواكل وترك الأسباب بحجة إحسان الظن بالله، فهذا لون، وما نتحدث عنه لون آخر، وهو الذي يتناغم مع مبادئ الشريعة وقيمها النبيلة.

المطلب الثالث: أهمية التفاؤل

التفاؤل كلمة جميلة، ومعنى يضيف على النفس البهجة والسرور. ولا شك أن للتفاؤل أهمية بالغة في حياة الفرد والجماعة، ولهذا جاء الشرع - كما سبق - بالتأكيد عليه الأمر بالتخلق به. ومتى ما كان المرء متفائلاً، وشاع التفاؤل في أفراد الأمة؛ فاعلم حينها أن الخير تتوالى بشائره، وأن السعادة قد ضربت بجرائنها في تلك الربوع.

ومما يدل على أهمية التفاؤل ما يأتي:

(١) أنه علامة على الثقة بالله تعالى:

ذاكم أن المتفائل يؤمن بأن الله قادر على كل شيء، وأنه لا يريد لعبده المؤمن إلا الخير، وأن يده سحائب الليل والنهار لم تغضها نفقة مند أن خلق السماوات والأرض^(١). وأنه تعالى أراد منا أن ندعوه، وأن نحسن الظن به كما قال جل شأنه في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني»^(٢)، وكل ذلك مراعاة لحسن الظن والتفاؤل بمستقبل واعد. أما من قطع صلته بربه؛ فما هو والفأل

(١) ثبت ذلك في صحيح البخاري ٦/٧٣ حديث رقم (٤٦٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «يد الله ملأى لا تغضها نفقة سحائب الليل والنهار، وقال: أرايتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده».

(٢) رواه البخاري ٩/١٢١ رقم (٧٤٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحسن؟! إنه ففءامل مع معطفاء الواقع بنظرة مادية صرفة، وفسب حساباته، وقرأ الواقع - والمستقبل كما فزعم! - بناء على ما فراه ماثلاً فبن عفنه!

فأمثال هؤلاء فسقطون من عفن الله، وفسل الله فبنهم وفن ما فعلقوا به، فتكون العواقب، وفسمة والنهائاء ففجة! ففن أرباب القوة والسلطان، والمفعة والعمران من سلف فف فابر الفارفخ، كقوم عاد وشمود وأصحاب الأفكة؟!!

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ (الفجر: ٦ - ١٤).

ولذلك فقد كان النبف ﷺ شفد فعلق بربه، عظم الرجاء وفسن الظن به، مفرئاً من حوله وقوته، وكان فءعو ففقول: «ولا فكلنف إلى نفسف طرفة عفن»^(١).

٢) ومما فءل على أهفمة الفأل أنه فهب المرء قوة وشجاعة فف قلبه، وفسعله جسوراً على مواجهة الصعاب والعقباء، وهذه

(١) رواه السنن الكبرى ٢١٢/٩ رقم (١٠٣٣٠)، وعمل الفوم واللفة ١/٣٠٤ رقم (٣٤٢) من فءف أنس بن مالك ؓ، وفسنه الألبانف فف صحف الفرففب ١/١٦٠ رقم (٦٦١).

المبحث الأول: معناه التفاؤل ومشروعيته وأهميته

ثمرة ناتجة عن الثمرة الأولى وهي الثقة بالله؛ فمن كان الله معه وعوناً له فممنّ يخاف؟! ومن كان متفائلاً بنصر الله له وتأبيده إياه فهل سيخيفه بشر، أو يسوؤه قدر؟!!

لأجل ذلك كان أولياء الله المتعلقون به، المحسنون الظن به؛ لا يخافون أحداً من البشر مهما عظمت قوته ولجّ في طغيانه!

هذا الخليل إبراهيم لما هدّده قومه وتوعّدوه بالنار ردّ عليهم بلسان المؤمن الواصل بنصر الله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٨٠).

ونبيّ الله هودٌ عليه السلام يعلنها بتحدّ صارخ وشجاعة نادرة، فيصيح في قومه: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُوا فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَا تُنظَرُونَ﴾ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٤-٥٦)

وأما صفوة الخلق وسيدهم وإمامهم محمد ﷺ فقد كان مضرب المثل في الشجاعة وجسارة القلب؛ وما ذاك إلا لحسن ظنه بربه وثقته التامة به.

يقول عليّ ؑ - وهو الهزبر الصنديد-: «كنا إذا حمي الوطيس واشتد البأس واحمرّت الحدق؛ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ

أقرب إلى العدو منه، وكان أشجعنا من كان أقرب إليه!«^(١).

ولهذا كان عليٌّ عليه السلام يقتفي أثر رسوله صلى الله عليه وآله في هذا المسلك، فكان شجاعاً صنيدياً يهابه الرجال الأشاوس، يقدم على الحرب بشجاعة منقطعة النظير، فيقول:

أَيُّ يَوْمَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُ
يَوْمَ لَا يُقَدَّرُ أَمْ يَوْمَ قَدِرُ؟
يَوْمَ لَا يُقَدَّرُ لَا أَرْهَبُهُ
وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يَنْجُو الْحَذِرُ!^(٢)

٣) وما يدل على أهمية التفاؤل في حياة الإنسان أنه يروّح عن النفس، ويجلب السعادة للقلب؛ فالمرء حين يكون متفائلاً بعواقب الأمور، مؤملاً بحسن الحال وانشراح الغمّة يكون في حال سرور وحبور، وترقب للخير وتمام النعمة. وهذا الشعور يبعث في النفس أريحية، وفي القلب انشراحاً وطمأنينة.

أَعْلَلِ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقُبْهَا
مَا أَضِيقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فَسْحَةُ الْأَمَلِ^(٣)

(١) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن عمر الحضرمي، ص ٤٣٦.
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ٩٦، نصح الطيب لابن المقرئ التلمساني ٥ / ٢٥٩.
(٣) البيت للطغرائي في لاميته الشهيرة، انظر: خزانة الأدب لعبدالقادر البغدادي ١ / ١٨٧، الكشكول لابن حسين العاملي ١ / ٣٠٢.

أما من يغلب جانب الخوف من المستقبل، ويفترض السوء في قابل الأيام؛ فهو يحكم على نفسه بالتعاسة والشقاء قبل حدوثها!

إن النفس بطبيعتها تحب سماع الحسن من القول، ورؤية الجميل من مباحج الحياة حتى ولو لم يكن في المقدور تغيير الواقع؛ ولذلك جاء وصف بقرة بني إسرائيل بأنها صفراء فافعّ لونها تسر الناظرين، فهي تسرهم وإن لم تكن لهم! فما أحوجنا إلى هذا الفهم! لتصفو به حياتنا، ويحلّو به عيشنا.

٤) التفاؤل يبعث في المرء مزيداً من النشاط والحيوية والهمة العالية؛ فيفكر وبيدع ويبنّي، لأنه يترقب نتائج حسنة لعمله.

فالتاجر حين يخطط لمشروع تجاري فإن الذي يحدوه للإقدام على هذا الأمر هو التفاؤل بالربح الوفير؛ وإلا لما كان مقدماً على ذلك!

والداعية إلى الله حين يطمع في هداية الخلق وإصلاح المعوج؛ فهو يزداد حماسة ونشاطاً في دعوته كلما كان أمله ورجاؤه في هدايتهم أكبر!

والطالب حين يُقدم على امتحان؛ فإنه إن كان متفائلاً بسهولة الأسئلة أو بقدرته - بعد توفيق الله - على حلّ ما سيواجه؛ فإنه سيكون بذلك أكثر تركيزاً وقت الامتحان، وأكثر قدرة على الحل من ذلك الذي افترض صعوبة الأسئلة، وتوقع الفشل في أدائه!

وَقَلْبَ بَصْرِكَ أَنِّي شئتُ فستجدُ جُلًّا؛ بل كلَّ الناجحين والعظماء
أولي نفوس متفائلة!

٥) وللتفاؤل أثر عجيب في أداء العبادة:

فالمتفائل برحمة الله له، المحسنُ الظنَّ بربه؛ يدفعه ذلك لأداء
العبادة على الوجه الأكمل، لأنه يرجو الخير من ربه في دنياه وأخراه.
فلولا أنه يطمع أن يكون من ساكني جنة الله - وهذا نوع من التفاؤل -
لما أدأب نفسه وقام الليالي مصلياً، وصام الهواجر صابراً محتسباً!

لذلك تأمل معي هذه الآية الكريمة: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ
سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ۗ﴾، ثم ماذا؟ ﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ﴾!
(الزمر: ٩).

إنه التفاؤل إذاً برحمة الله وعفوه ومغفرته. وإذا كان المؤمن بهذا
الشعور الإيماني فإنه سينشط في العبادة، ويؤديها بخشوع وخضوع
ودأب؛ ذلك لأنه مرتاح النفس، مطمئن القلب.

أما حين يكون مهموماً حزيناً فإنه لا يؤدي العبادة كما ينبغي؛
بل تراه يتثاقل في أدائها، وذلك أن النفس قد أصابها الهمود والفتور!
لهذا كله استعاذ النبي ﷺ من الحزن^(١) لما يخلفه من أثر سيئ على
نفس الإنسان، وهذا أمر مشاهد محسوس!

(١) ورد ذلك في حديث أنس بن مالك ؓ، كما في صحيح البخاري ٤/٣٦ رقم (٢٨٩٣).

٦) وما يدل على أهمية التفاؤل أن له تأثيراً بالغاً في صحة الإنسان!

ولعل هذا الأمر فرع عن سابقه، فالنفس متى ما كانت مرتاحة؛ فالجسد خادم لها لا يكل ولا يمل؛ لذا ترى المريض حين يسمع من الطبيب أنه مقبل على تحسُّن في صحته، وأن نتائج التحاليل تبشر بخير ونحو ذلك من المبشرات؛ فإنه يصبح في حال أحسن مما كان قبل ذلك! وعكس ذلك صحيح أيضاً، فلو خُوف المريض من مرضه، أو ذُكر له أن نتائج التحاليل لم تكن جيدة فسينعكس ذلك لا محالة على حالته الصحية.

فتتوَّع المكروه وسمع ما يُحزن يؤثر سلباً على حال الإنسان، وفي المقابل فإن سماع ما يسر، ورؤية ما يبهج، وتوَّع الخير له أثر لا يخفى على صحة الإنسان وقوته.

مرض الحبيب فزرتُه

فمرضتُ من خوفي عليه

وأتى الحبيب يزورني

فبرئت من نظري إليه!^(١)

(١) ينسب البيتان للإمام الشافعي كما في: قوت القلوب لأبي طالب المكي ٢/ ٣٨٠، إحياء علوم الدين للغزالي ٢/ ١٨٨.

ولذا فإن الإسلام ربّانا على اختيار الألفاظ الحسنة، وبثّ روح
الغالب عند عيادتنا للمرضى، فلا ينبغي أن يسمعوا منا إلا ما يبشر
بخير، وقدّر الله نافذاً في كل حال.

وكان من هديه ﷺ حين يزور المريض أن يدعو له فيقول: «لا
بأس، طهور إن شاء الله»^(١).

وما أكثر جهلّ الناس بهذا المعنى الأخلاقي الجميل! وكم جنى
الزائر على المزور!

يقول سفيان الثوري - رحمه الله: «حُمق العوّاد أشدُّ على المرضى
من أمراضهم!»^(٢).

ودخل رجل على عمر بن عبدالعزيز يعود في مرضه فسأله عن
علته. فلما أخبره قال: من هذه العلة مات فلان، ومات فلان! فقال
له عمر: إذا عُدت المرضى فلا تنع إليهم الموتى، وإذا خرجت عنا فلا
تعد إلينا!^(٣).

وكم من مريض علته في طريقة تفكيره، واستدعائه لأحزانه
وهومومه، وتخوّفه من القادم!

(١) رواه البخاري ٢٠٢/٤ رقم (٣٦١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) العقد الفريد ٢/٢٨٤.

(٣) السابق ٢/٢٨٤.

يقول الدكتور جوزيف مونتاجي: «قرحة المعدة لا تأتي مما تأكله، ولكنها تأتي مما يأكلك!»^(١).

وقد أكدت أبحاث طبية ودراسات أجراها باحثون في صحة الإنسان مدى تأثير التفاؤل والتشاؤم على صحة الإنسان سلباً وإيجاباً. ففي دراسة أجرتها الدكتورة ترودي تشالدر من كلية توماس الطبية في لندن على مرضى في الإرهاق المزمّن ثبت دور التفاؤل في التخفيف من حدة الأعراض التي يعانون منها. وقد قامت الباحثة بتنظيم اثنتي عشرة جلسة للعلاج بالسلوك الإدراكي تضمنت جميعها تحفيز المرضى على التفكير إيجابياً إزاء حالاتهم، وبعد ستة أشهر انخفض مستوى التعب، وتعززت قدراتهم على أداء مهامهم في حياتهم!

وفي دراسة قام بها اختصاصيٌّ من مستشفى بلندن أكد في ضوءها أن النساء المصابات بسرطان الثدي اللواتي يتحلّين بالروح الدفاعية غالباً ما يعشن لفترات أطول؛ مقارنة مع غيرهن من المصابات ممن يسيطر عليهن اليأس أو التشاؤم، أو توقع الموت في أية لحظة!^(٢).

(١) انظر موقع: دار الولاية للثقافة والإعلام على الشبكة العنكبوتية

alweyah.net

(٢) انظر على الشبكة العنكبوتية موقع: منظمة الحريات للتواصل بين موظفي قطاع العدل بالمغرب.

<http://alhoriyatmaroc.worldgoo.com/t1166-topi>

وبهذا يُعلم أن للتفاؤل أهمية كبرى في حياتنا، فهو يصنع الحياة بألوان زاهية بديعة تفيض بالسرور على قلوبنا، وتخفف من غلواء المصائب والبلاء الذي لا بدَّ من وقوعه لأنه من جملة سنن الله تعالى في خلقه. أما التشكي والتذمر وتوقُّع الشر فيما تأتي به الأيام؛ فهو جالب للكآبة، باعث للأحزان!

يقول إيليا أبو ماضي في هذا المعنى:

أيها الشاكي وما بك دأءٌ

كيف تغدو إذا غدوت عليلا

إن شر الجناة في الأرض نفسٌ

تتوقى قبل الرحيلِ الرحيلاً

وترى الشوك في الورود وتعمى

أن ترى فوقها الندى إكليلاً

هو عبءٌ على الحياة ثقیلاً

مَن يظن الحياة عبئاً ثقیلاً

والذي نفسه بغير جمال

لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً!^(١)

(١) ديوان إيليا أبو ماضي، ص ٦٠٤.

ومهما يكن من شيء فلا بدّ من إشاعة الأمل والتفاؤل في حياتنا حتى ولو لم تتحقق كل آمياتنا وجميع رغائبنا. فالعيش بالتفاؤل، وانتظار الجميل في قابل الأيام والليالي؛ متعة ولذة بغض النظر عن النتائج!

أَمَانِيَّ مِنْ لَيْلَى حَسَانًا كَأَنَّمَا

سَقْتَنِي بِهَا لَيْلَى عَلَيَّ ظَمًا بَرْدًا

مُنَى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى

وَإِلَّا فَقَدْ عَشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغْدًا^(١)

(١) البيتان لابن ميادة. انظر: الكشكول ١/ ٣٣٢، زهر الآداب ١/ ٣٢٥.

المبحث الثاني

أسلوب القرآن في تربية النفوس على التفاؤل

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إيراد نماذج من تفاعل الصالحين.

المطلب الثاني: إشاعة التفاؤل في وقت الأزمات والمعضلات.

أنزل الله كتابه الكريم ليكون نبراساً لكل تائه، وهداية لكل ضال، فمن سار وفق توجيهاته سعد، ومن أعرض عنه خسر وشقي. وما أحوج البشرية اليوم - وهي تتخبط في ظلمات التيه - إلى هداية القرآن! التي فيها صلاح الدين والدنيا ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩).

والتفاؤل - كما سلف - منهج قرآني في إصلاح الفرد والجماعة، وحرِّي بنا - ونحن نتلمس هدايات القرآن - أن نتعرّف على أسلوب القرآن في طرح هذا الموضوع المهم، لنقتبس من نوره شعلة تضيء لنا الطريق، وتهدينا سواء الصراط.

ويمكن لنا أن نحدّد مسار الحديث عن أسلوب القرآن في تربية النفوس على التفاؤل ليكون على النحو الآتي:

المطلب الأول: إيراد نماذج من تفاؤل الصالحين

يزخر القرآن الكريم بنماذج لصفوة عباد الله الذين كان التفاؤل منهجاً لهم في حياتهم في أحلك الظروف، وأشد ساعات البلاء، وكيف أن الله كان عند ظنهم به، فلم يخذلهم، ولم يقطع رجاءهم، ويخيّب آمالهم.

انظر إلى نبي الله موسى عليه السلام لما هرب من فرعون بعد أن قتل بالخطأ ذلك القبطي، فتأمر عليه الملائم من قوم فرعون، فتوجه حينها إلى أرض مدين، ولم يكن معه طعام ولا كساء، ولا يدري إلى أين يذهب؟ فلا أحد يعرفه، ولا صديق يؤانسه، ولا بيت يأوي إليه، فالمعطيات كلها لا توحى بما يسر، ومع ذلك كان يحسن الظن بربه، ويتفائل بحسن تدبير الله له، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدِينَةٍ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ (القصص: ٢١ - ٢٢). فهو حين خرج من مصر لم يكن يدري إلى أين يذهب؛ لكنه أمّل في الله أن يهديه إلى السبيل الصحيح والطريق الذي تكون به نجاته.

ثم لما أتى أهل مدين، وسقى للمرأتين في الخبر الذي قصه القرآن لنا كان الجوع قد بلغ به مبلغه! حتى إنه ذُكر في بعض الأخبار أنه أكل ورق الشجرة التي كانت عند ماء مدين!

قال ابن عباس رضي الله عنه: «سار موسى من مصر إلى مدين حتى سقطت نعل قدمه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصقُ بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة!»^(١)

نبي الله، وأحد أولي العزم، ويأكل ورق الشجر!

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «حشثُ على جمل ليلتين حتى صبَّحت مدين، فسألت عن الشجرة التي آوى إليها موسى، فإذا شجرة خضراءُ ترَفُّ، فأهوى إليها جملي وكان جائعاً، فأخذها فعالجها ساعة ثم لفظها! فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت!»^(٢).

وفي خضم هذا البلاء المتتابع على هذا النبي الصالح يظهر عظيم الرجاء والأمل في الله في قوله: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص: ٢٤).

اعتصامٌ بالله، وأملٌ في غوثه وخيره، فما هو إلا قليل حتى بدأت الفتوحات عليه تتوالى فأواه ربه، وأطعمه، وأنكحه إحدى المرأتين الصالحتين، وعاش سنين عديدة في رغد وعيش طيب!

ومع موسى عليه السلام أيضاً في موقف عظيم يتجلى فيه عظيم

(١) تفسير ابن كثير ٦/٢٢٧.

(٢) تفسير الطبري ١٩/٥٥٦، تفسير ابن كثير ٦/٢٢٧.

الفأل؁ وحسن الظن بالله؁ فف ساعة يطفش ففها عقل الحلفم؁ وفذهل ففها اللففب الحكفم!

إنها الساعة التي وقف ففها عفله السلام أمام البحر بعد أن فرّ بءفنه هو وبنو إسرائيل متوجهاً للقاء البحر؁ فلما قارب البحر إذا بفرعون ففبعه بجفش قوامه فزفء على مليون جنءف! (١).

وتأتف ساعة الصفر؁ البحر أمام موسى؁ وعدؤه من خلفه بجفش جرار. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (الشعراء: ٦١)؁ أئ: تقابلا بءفث فرف كل فرقق صاحبه (٢)؁ وبلغت القلوب الحناجر؁ عنءها ساء ظن بنف إسرائيل فف ربهم؁ وانقطع أملهم؁ لأنهم لا فملكون روحاً كروح موسى عفله السلام؁ تلك الروح الوائقة بربها؁ المطمئنة إلى موعوءه ونصره؁ التي لا تلجئها الكروب والمحن إلى الفأس والقنوط؁ وأما موسى عفله السلام فقال بلسان فصفح؁ وقلب مملوء بالفققن والفأل الحسن بالله: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢).

إنه الإفمان الراسخ الذي لا ترلزله الرفاح العائفة؁ ولا الأمواج المضطربة! وما هي إلا لحظات فإءا بالفرج فأتف سرفعاً: ﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء: ٦٣).

(١) المحرر الوجفز لابن عطفة ١/١٢٣؁ تفسير القرطفف ١/٣٨٩.

(٢) تفسير الطبرف ١٩/٣٥٥؁ تفسير البغوف ٣/٤٦٨.

من كان يظن أن البحر الخضم سيصبح طريقاً يساً تطؤه
الأقدام؟!!

إنه صدق موعود الله لمن أحسن الظن به، وأعظم الرجاء فيه.

وهذا سيد المتفائلين محمد ﷺ في أشد الساعات حرماً تراه باسم
الثغر، واثقاً من ربه، متفائلاً بالخير من مولاه.

وقفت وما في الموت شك لواقف

كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلهم هزيمة

ووجهك وضاحٍ وثرغك باسم! (١)

لقد مرت برسول الله ﷺ مواقف كثيرة في حياته كانت شديدة
الوطء على قلبه، بعضها ذكره الله في القرآن - وهو موضوع حديثنا -
وكثير منها في صحيح السنة الشريفة. وكان ﷺ في كل تلك الأحداث
الأنموذج البشري الأسمى في التفاؤل وحسن الظن بالله!

حكى الله عنه ثقته بربه وثباته العجيب في حادثة الهجرة الشهيرة
حين كان في الغار هو وصاحبه الصديق ﷺ، وقد وصل الكفار إلى
حيث الغار، حتى إن أبا بكر قال لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله! لو
أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا!».

(١) البيتان للمتنبي، انظرهما في ديوانه ٣/٣٧٨.

فالخطب إذن جلل، والعدو قاب قوسين أو أدنى منهما، فيأتي جوابُ الواثقِ المتفائل: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»^(١).
﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠).

أجل! من كان الله معه فكيف يحزن!؟

إن هذه الكلمة التي قالها رسول الله ﷺ لأبي بكر: (إن الله معنا) هي ذاتها التي قالها أخوه موسى عليه السلام فيما ذكرناه آنفاً: (إن معي ربي سيهدين). فاستشعار العبد لمعية الله له يجعله أكثر تفاؤلاً، وأشد اطمئناناً في أوقات الأزمات والكروب.

ولما حاصرت قريشُ رسولَ الله ﷺ في بيته وتمالؤوا على قتله، وانتدبوا من كل قبيلة فارساً شجاعاً ليكون قتله على يد هؤلاء جميعاً فيتفرق دمه بين القبائل - بأبي هو وأمي - وكان هذا المكر من قريش مكرًا كُبَّارًا، ولكنَّ الله مَكَّرَ بهم من حيث لا يشعرون، فخرج ﷺ من بين أيديهم واثق الخطى، مطمئن القلب، متفائلاً بمآلات الأمور، فأخذ حفنة من تراب - وقد طمس الله أبصارهم - فجعل يذرّها على رؤوسهم، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يس: ٩)، وبقوا على حالهم تلك، وقد جللتهم المهانة والذلة، وهم لا يدرون عن الذي حلَّ بهم

(١) تفسير الطبري ٢٥٩/١٤، الكشف والبيان للثعلبي ٤٧/٥، تفسير ابن كثير ١٤٢/٥.

حتى خرج عليهم بعد ذلك خارجاً من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: نتنظر محمداً. قال: قد خرج عليكم فما منكم من رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته! فجعل كلُّ منهم ينفض ما على رأسه من التراب (١).

ولم يقتصر القرآن على إيراد نماذج للمتفائلين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ بل تعدى ذلك إلى عباد الله الصالحين الذين تربوا في مدارس هؤلاء الأنبياء الأطهار، وأخذوا عنهم حسن الظن بالله، وتفويض الأمور إليه.

يذكر لنا القرآن الكريم خبر آسية زوجة فرعون الطاغية، تلك المرأة الصالحة التي آمنت بربها، وصبرت على آذى فرعون وتعذيبه صبرَ الجبال الرواسي حتى ضرب الله بها المثل في القرآن للمؤمنين ليقتدوا بها، ويأتسوا بصبرها ويقينها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحریم: ١١).

وما يهمننا في خبر هذه المرأة الصالحة ما نحن بصدد الحديث عنه في جانب الفأل وحسن الظن بالله؛ فقد كتب الله تعالى أن يعيش نبيُّ الله موسى عليه السلام في كنف عدوِّه الطاغية فرعون، وله تعالى الحكمة البالغة في كل ما قدره.

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٧٠، تفسير ابن كثير ٦/ ٦٤.

لقد أوحى الله إلى البحر وهو من جنده تعالى أن يقذف بذلك الطفل الرضيع موسى إلى قصر فرعون، فلما أتى به إلى فرعون أراد قتله خشية أن يكون زوال ملكه على يده؛ لأنه قد اتخذ في ذلك العام سياسة قتل المواليد الذكور؛ وذلك أن الكهنة قد أخبروه بأن ملكه سيزول على يد رجل من بني إسرائيل يولد في ذلك العام!

فلما همّ بقتله قالت امرأة فرعون: ﴿قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص: ٩)، فقال فرعون: أما لكِ فنعم، وأما لي فلا! (١).

تأمل إلى الفارق بين هاتين النفسين: نفس هذه المرأة المؤمّلة الخير، المتفائلة بحصوله، ونفس فرعون المجبولة على النزق وسوء الظن بالله تعالى. وقد كان لكل منهما ما قال!

أما زوجة فرعون فقد كان قرّة عين لها وسبباً لفوزها بيت في الجنة بجوار الرحمن كما قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحریم: ١١). وأيّ قرّة عين أعظم من ذلك!؟

(١) تفسير الطبري ١٩/٥٢٤، الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨/٥٤٩٢، تفسير ابن كثير ٦/٢٢٢.

وأما فرعون فقد كان موسى له على عكس ما كان لزوجته، فقد زلزل الله ملكه، ومزق شمله، وكان موسى سبب ذلك بعد تقدير الله وتديره.

فالكلمة الحسنة المتفائلة قد تكون سبباً لحصول الخير للإنسان، والعكس أيضاً صحيح! ولهذا قيل: «البلاء موكل بالمنطق»^(١).

وما الذي كان يضر فرعون لو قال: قررة عين لي؟! ولكن النفس المتشائمة تأبى أن تخرج عن طبعها!

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أنه قال: وهو قررة عين إذاً لآمن به، ولكنه أبى!»^(٢).

ونموذج آخر للمتفائلين حكاها لنا القرآن عن أصحاب رسول الله ﷺ الذين تربوا على عينه، ونهلوا من معينه، فكانوا متفائلين بنصر الله لهم وتأيدته وعنايته.

فبعد أن أصاب المسلمين ما أصابهم في غزوة أحد تواعدوا مع المشركين في حرب قادمة من العام التالي لغزوة أحد، فلما دنا وقت

(١) ويروى عن رسول الله ﷺ ولا يصح، رواه القضاعي في مسند الشهاب ١/١٦٢ عن علي بن أبي طالب، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٣/٢٨٠ من طريقه عن أبي الدرداء، والحديث ضعيف كما قال ابن الجوزي في الموضوعات ٣/٨٣ وانظر أيضاً: تنزيه الشريعة ٢/٢٩٦، اللآلئ المصنوعة ٢/٢٤٩، السلسلة الضعيفة ٣٩٦/٧.

(٢) تفسير الطبري ١٩/٥٢٥.

القتال خرجوا لملاقة عدوهم، فخوّفهم بعض المشركين من عدد وعتاد عدوهم وقالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١) (آل عمران: ١٧٣).

نعم لقد زادهم ذلك إيماناً وتفأؤلاً بربهم وحسن ظنّ به، فكان جوابهم رغم الجراح التي أصابتهم في أحد والقرح الذي مسهم فيها: (حسبنا الله ونعم الوكيل!).

إنه منطق المؤمن حين يشتد به الكرب وتحقق به الشرور، فالله هو حسيبه وكافيه من كل مكروه.

ويتكرر المشهد في غزوة الأحزاب حين تواطأت جموع الكافرين على رسول الله ﷺ وأصحابه، واشتد البلاء وعظم الكرب، فكان الحال كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾^(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ١٠-١١).

وفي هذه الأثناء كان رسول الله ﷺ يبيث الأمل في نفوس أصحابه، ويذكرهم بوعد الله لأوليائه، فكان يعدهم بزوال ملك كسرى وقيصر على يد المسلمين فضلاً عن جموع قريش الخاسرة!

(١) تفسير الطبري ٧/ ٤١٠، كشف البيان ٣/ ٢١٠.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكيننا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى ثوبه وأخذ المعول، وقال: «باسم الله»، فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة، ثم قال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الآن من مكاني هذا!» ثم ضرب أخرى وقال: «باسم الله» فكسر ثلثاً آخر، ثم قال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض!» ثم ضرب الثالثة، وقال: «باسم الله» فقطع الحجر، وقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر باب صنعاء!»^(١).

وأمام هذه المبشرات التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبثها في قلوب المؤمنين كان المنافقون يسخرون ويشيعون قالة السوء ليهنوا قوة المسلمين كما هو حالهم في كل زمان ومكان، **﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾** (الأحزاب: ١٢). وكان قائلهم يقول: محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط!^(٢).

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٣٧٨/٧ رقم (٣٦٨٢٠)، والإمام أحمد في مسنده ٦٢٥/٣٠ رقم (١٨٦٩٤) وأبو يعلى في مصنفه ٢٤٤/٣ رقم (١٦٨٥)، وإسناده حسن كما قال ابن حجر في الفتح ٣٩٧/٧، والحديث أصله في صحيح البخاري لكن بغير هذه الرواية، انظر: ١٠٨/٥ رقم (٤١٠١).
(٢) تفسير الطبري ٢٢٣/٢، تفسير ابن كثير ٦/٣٨٨.

أما المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ فكانوا على ضد ذلك، فقد فهموا الدرس جيداً واقتدوا بنبيهم عليه الصلاة والسلام في حاله وقت المحنة حين يكون متفائلاً بنصر الله وإعزاز دينه، فكانوا كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٢).

الله أكبر! ما زادهم البلاء إلا إيماناً بربههم وبصادق وعده لهم، وتسليماً لأمره، وانقياداً لحكمه لأنه تعالى من يدبر الأمور، ويصير الأقدار.

وكانت العاقبة لهم جزاء حسن ظنهم بربههم، فنصرهم الله وخذل عدوهم ورجعوا أذلة صاغرين: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب: ٢٥).

أجل! إنه القوي العزيز فلم الخوف إذن؟! ولم التشاؤم والجزع؟! والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا

حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١﴾ (آل عمران: ١٧٣).

والله لا يخيب من أناخ ببابه ولاذ بجانبه، لهذا كانت العاقبة حميدة، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٤).

عن ابن جريج قال: «لما عبى^(٢) النبي ﷺ لموعداً أبي سفيان، فجعلوا يلقون المشركين ويسألون عن قريش فيقولون: «قد جمعوا لكم» يكيدونهم بذلك، يريدون أن يربوهم فيقول المؤمنون: (حسبنا الله ونعم الوكيل) حتى قدموا بدراناً، فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد!^(٣)»

(١) تفسير البغوي ٢ / ١٣٨، تفسير ابن كثير ٢ / ١٦٩.

(٢) (عبى) بمعنى: هيا وأعد. انظر: القاموس المحيط ص ١٣٠٦، المعجم الوسيط ٥٨١ / ٢.

(٣) تفسير الطبري ٧ / ٤١١.

المطلب الثاني: إشاعة التفاؤل في وقت الأزمات والمعضلات

تمرّ بالفرد والأمة أزمات وشدائد تحار فيها العقول، ويُذهل المرء وقتها فلا يدري ما يصنع؛ نظراً لشدّة وطء المصيبة وأليم وخزها. وهنا لا بدّ من يدٍ حانية تأخذ بيد ذلك المبتلى، وتشيع في قلبه عدم اليأس والقنوط، بل تطمعه في أن هناك مستقبلاً واعداءً ينتظره بعد هذه الكربة والمحنة التي ألمّت به.

وهذا ما انتهجه القرآن الكريم في كثير من آياته العظيمة، التي تزرع الأمل، وتبشر بالخير وحسن العاقبة لمن أصابهم البلاء ومسهم القرع.

وقد شمل هذا المنهج القرآني الفريد جميع جوانب الحياة، على المستوى الفردي، وعلى مستوى الأمة بمجموعها.

ويمكن أن نتحدث عن هذا الجانب من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: التفاؤل في حال تكالب الأعداء على الأمة وقلة المعين:

ويكون ذلك من خلال الأساليب الآتية:

(١) التفاؤل بقرب النصر على الأعداء:

إن الأمة الإسلامية تعيش اليوم مرحلة متردية من الضعف والهوان لم تبلغها في تاريخها كُله! توأطأت عليها قوى الغرب والشرق، وساموا أهلها ألوان العذاب وأصناف الهوان!

وها هي أعدادٌ من بلدان المسلمين تُستباح حرماؤها، وتنتهب خيراتها، وتدنس مقدساتها ولا مغيث ولا مجيب! ولا تكاد العين تلمح بقعة من بلاد المسلمين إلا وفيها جرح غائر، ودمع سكيب!

وأمام هذه القوى التي تداعت على أمتنا وما تملكه من ترسانة حربية ضخمة ومكر كُبار أفسدوا به بلاد المسلمين، وفرَّقوا به بين شعوبها، وأثاروا التطاحن والتقاتل بين أبناء الملة الواحدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أمام ذلك كله أصيب كثير من المسلمين بالإحباط واليأس، وشكَّ أقوام في موعود الله ونصره، فهُزموا في نفوسهم قبل أن يهزموا في ميدان المعركة، وتلك أشد أنواع الهزيمة!

وأكبر سبب لوصول هذه الهزيمة في داخل النفوس ووصول هذا الإحباط واليأس هو البعد عن هدايات القرآن الكريم، التي لو سررنا وفقها لتبدل الحال، وانزاح الظلام.

ومن تأمل آيات القرآن وجد كثيراً منها تزرع الأمل في النفوس، وتقوي اليقين بموعد الله ونصره وتمكينه لعباده.

فالله تعالى وَعَدَ - وهو لا يخلف الميعاد- أن العاقبة لجنده، وأن نهاية المعركة محسومة لأولائه وإن انتفش الباطل وأرعد! يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَاتِنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ (الصفات: ١٧١ - ١٧٣). وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ (الروم: ٤٧) وقال أيضاً: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ (غافر: ٥١).

وَوَعَدُ الله لا يمكن أن يُخْلَفَ، ذلك أن من يُخْلِفُ وعده إما كاذب أو عاجز، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فكلامه صدق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ (النساء: ١٢٢). وقدرته فوق ما تتخيله العقول وتتصوره الأذهان. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴿٦٧﴾ (الزمر: ٦٧).

إن وعد الله لعباده بالنصر والتمكين آتٍ وإن طال الزمن! فلئن استبطأ الناس نصر الله فهو قريب، إلا أنه لا بد من سنة التمحيص والابتلاء: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَيْرَ مِنَ الْطَيِّبِ﴾ (الأنفال: ٣٧)، ولكن النصر هو نهاية المطاف، لا شك في ذلك ولا ريب! يقول جل في علاه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَأَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

قال سيد قطب - رحمه الله - حول هذه الآية: «إن سؤالهم: (متى نصر الله؟) ليصور مدى المحنة التي تُرزل مثل هذه القلوب الموصولة. ولن تكون إلا محنة فوق الوصف، تلقي ظلها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب: (متى نصر الله؟)».

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة؛ عندئذ تتم كلمة الله، ويجيء النصر من الله: (ألا إن نصر الله قريب).

إنه مُدخَّر لمن يستحقونه. ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية. الذين يثبتون على البأساء والضراء. الذين يصمدون للزلزلة. الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة. الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله. وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها، فهم

يتطلعون فحسب إلى (نصر الله)، لا إلى أيّ حل آخر، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلا من عند الله.

بهذا يدخل المؤمنون الجنة، مستحقين لها، جديرين بها، بعد الجهاد والامتحان، والصبر والثبات، والتجرد لله وحده، والشعور به وحده، وإغفال كل ما سواه وكل من سواه»^(١).

إن العلماء والدعاة إلى الله حين يحثون الناس على الرجوع لدينهم، والاستمسك بكتاب ربهم؛ فذلك لأن هذا هو شرط النصر الموعود من قبل الله، فإذا عاد الناس وساروا على ما سار عليه أسلافهم؛ فالنصر أقرب إلى أحدهم من شرك نعله!

لهذا لما قام الإمام ابن تيمية - رحمه الله - يحث الناس على حرب المغول، ويحث الأمل فيهم بالنصر على عدو بلغ خوف المسلمين منه أمراً يطول له العجب^(٢)، فكان - رحمه الله - يقول بلسان المؤمن الواثق: «أقسم بالله إنكم لمنصورون!»، فكان بعض الأمراء يقول له: قل: إن شاء الله، فيقول: «إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً!»^(٣).

إنه التفاؤل الذي ملأ جنبات هذا الإمام المجاهد!

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١ / ١٩٧.

(٢) انظر لأمثلة ذلك الخوف من التتر إلى ما سطره ابن الأثير في كتابه: الكامل في التاريخ ١٠ / ٣٣٣، ففيه ما يدمي القلب، ويدمع العين!

(٣) تاريخ ابن الوردي ٢ / ٢٧٨، البداية والنهاية لابن كثير ١٤ / ٢٣.

فلا بد إذاً من بثّ الأمل، والتذكير بظهور هذا الدين، ونصرة أولياء الله الصالحين وإن عظم الكرب، واشتد البلاء!

٢) التهوين من شأن العدو وتقزيم قوته:

ولهذا العامل أثر كبير في تحقيق النصر، فإن الجندي حين يقاتل عدوه وهو مستعظم لقوته، خائف من بطشه؛ فلا بد أن يكون لذلك أثر سيئ في روحه المعنوية. لكنّ حينما يُهَوَّن من شأن العدو في نفسه، وفي المقابل يذكر هو بقوته وما معه من سلاح وعتاد؛ فلا شك أن ذلك سيُسهم في بثّ الشجاعة في قلبه، وحينها سيقاقل باستبسال وتضحية.

لهذا نجد القرآن يذكر المؤمنين بأن قوتهم بالله لا تعدلها قوة، وأن النصر ليس مرهوناً بنظرة مادية مجردة للعدد والعتاد، قال تعالى: ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩). ويثبت لهم تعالى ذلك بالواقع من خلال معارك دارت بين المؤمنين السابقين من أتباع الرسل وبين أعداء الله، فكانت العاقبة للمؤمنين مع قلة عددهم وعتادهم.

قال عز وجل عن قوم داود عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ

جألوت وءآتته الله ألملك وألحكمة وعلمه ومآيشآء ولؤلآ
دفع الله النآس بعصهم ببعض لفسدت الأرض ولآكن الله
ذوفضل على العلمفنف ﴿البقرة: ٢٥٠ - ٢٥١﴾.

وفف وقعة حنن لما انكشف المسلمون ولم فببق مع رسول الله
إلا قلة من المهاجرفن والأنصار؁ وبلغ بهم الكرب مبلغه؛ ففنهآ
نزل النصر والتمكفن؁ قال جل شأنه: ﴿لقد نصركم الله فف
موأطن كآفرق ووم حنن إذ أعجبكم كآرتكم فلم فغن
عنكم شفا وصآقت علىكم الأرض فمارحبت ثم ولتتم
مؤدرفن ﴿٢٥﴾ ثم أنزل الله سكفنته على رسوله وعلى المؤمنفن وأنزل
جودآ لم ترهآ وعذب الذفن كفروآ وذلك جزآء الكفرفن ﴿
(التوبة: ٢٥-٢٦).﴾

وكما نلحظ القرآن فشفجع المؤمنفن على الصبر والقتال؁ فذكرهم
بأن الله معهم؛ فهو كذلك ففون من شأن عدوهم؁ وفقلله فف أعفنهم
مقارنة بقة الله وجبروته؁ فقول الله تعالى: ﴿فرفدون فطفنؤ نور الله
بأفوأهم والله مئم نوره ولؤكره الكفرون﴾ (الصف: ٨).

ولك أن ففخفل هذه المقارنة العجبفة! نور الله الذي طبق
فجاج السماوات والأرض فرفد هؤلآ الأقرآم أن فطفنؤه! وبهاذا؟!
بأفوأهم!؟

أتطفئ نورَ الله نفخةً كافرًا!

تعالى الذي بالكبرياء تفرّدا

إن الله تعالى يذكر المؤمنين بقوته وقدرته، وأن كل الخلق لا يعجزونه في مثالٍ من التاريخ لقوم ملكوا العتاد والبلاد، وصارت لهم قوةٌ ومنعة، فما أغنت عنهم قوتهم من الله شيئاً. إنهم قوم عاد الذين قال الله عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ (فصلت: ١٥).

فإذا توعدنا أعداؤنا وخوفونا بما لديهم من سلاح وقوة؛ فلا ينبغي أن نذل ونهون، لأنّ لدنيا قوةً هي أعظم من قوتهم، وسلاحاً هو أعظم من سلاحهم، ألا وهو سلاح الإيمان بالله، واللجأ إلى ركنه الشديد.

٣ إبراز قوة الله وبطشه وانتقامه من أعدائه:

من أهم العوامل التي تساعد على بثّ الأمل والتفاهل بالنصر على العدو تذكرُ سطوة الله وانتقامه من أعدائه.

والقرآن حافل بآيات كثيرة تبرز كيف بطش الله بأعدائه وأباد خضراءهم، فجعلهم أثراً بعد عين!

هذا فرعون الذي اغتر بملكه، وانخدع بجنده وحاشيته، وبلغ من طغيانه أن ادعى أنه رب السماوات العلى! كيف كانت نهايته وقومه؟ قال الله: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ (الزخرف: ٥٥ - ٥٦).

الله أكبر! تأمل إلى قوله: (آسفونا) أي: أغضبونا وأسخطونا! (١) فكانت النتيجة حينها: (انتقمنا منهم!)، وبالله كيف ستكون غضبه الله وانتقامه؟!

إن ما يقوم به الصهاينة الأنجاس وأعوانهم من أعداء الله من ظلم صراح للمسلمين، وتدنيس لحرمة الله، وانتهاك لحدوده؛ هو مما يُستجلب به سخطُ الله، وحينها ترقب (انتقمنا منهم)، فهو آتٍ لا ريب فيه ولا مراة! وقومٌ سبأ لما أعرضوا عن أمر الله مغترين بما أوتوا من النعيم وسبل الحياة الرغيدة صبَّ الله عليهم عذابه، فكانت العاقبة: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ ﴾ (سبأ: ١٦)، ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سبأ: ١٩).

ما أعظم الكلمة! ﴿ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾! لقد شرّدوا ودُمّرت قراهم، وصاروا أحاديث السّمّار وأخبار الرواة!

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٣٢.

وأما قوم لوط فإنهم لما استخفوا بأمر الله، وسخروا من نبيّه، وعاقروا الفحش والرذيلة في ناديمهم نزل بهم عذاب لم يكن لأحد من العالمين! قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٤﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٢ - ٨٣).

قال قتادة: «بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف به أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها، فضمّها في جناحه وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف! ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل»^(١).

لا إله الا الله! أربعة آلاف ألف؟! أي: أربعة ملايين إنسان هانوا على الله في طرفة عين!

إنها قوة الله التي لا تداينها قوة، فتبارك الله رب العالمين.

إن المؤمن حين يقرأ في كتاب الله كيف كانت نهاية تلك الأمم التي عتت عن أمر ربها، ونأت عن شرعه؛ ليُعظم رجاءه، ويزداد أمله بحسن العاقبة.

(١) تفسير الطبري ١٥ / ٤٤٢.

فلئن مكر العدو وبالغ في كيدته فالله من ورائه يمكر به: ﴿ وَمَكْرُؤًا
مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَنْقَبَهُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النمل: ٥٠-٥١).

والتاريخ يشهد بنهاية تلك الأمم المتجبرة المعادية لرسول
الله كيف كان مصيرهم: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٠).

الفرع الثاني: التفاؤل في حال الفقر وضيق العيش:

الفقر من جملة أقدار الله التي يبتلي بها من يشاء من عباده ليمتحن إيمانهم وصبرهم كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥)

قال ابن عباس: «فبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر»^(١).

وأكثر الخلق يجزعون عند الفقر، ويتشاءمون بسوء الحال والمآل، وتنبعث منهم كلمات اليأس والقنوط كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (الإسراء: ٨٣).

وقد يصل الأمر ببعض الناس إلى سوء الأدب مع الله لأنه قدّر عليه الفقر! كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (الفجر: ١٥-١٦).

إن هذه الأخلاق ليست هي أخلاق المؤمنين الذين رباهم القرآن على التسليم لأمر الله والرضا بقضائه وقدره.

لقد جاء القرآن الكريم ليزرع الأمل في نفوس الفقراء، ويطمئن قلوبهم، وذلك من خلال عدة أمور منها:

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٤٠، الهداية إلى بلوغ النهاية ٧/ ٤٧٠٥.

١) التذكفر بأن كل ما ففصف المرء من فافقة وفقر فهو أمر مكروب، وأما الجزع والتسخط فلن فرد فائناً، ولن فستجلب غائباً.

فقول الله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فف الْأَرْضِ وَلَا ففِ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فف كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَاهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ فف سِيرٌ ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا فف ففِبْ كُلِّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿ (الحدفد: ٢٢ - ٢٣).

إذا علم ذلك ففنبغف للمؤمن أن فطمئن قلبه لما كتبه الله؛ لأن الجزع والقنوط لن فغفر من الواقع شئناً؛ بل ففكون سبباً للتكاسل عن العمل والسعف فف طلب الرزق.

٢) التذكفر بأن الله قد ضمن الرزق لعبده وأنه لن فضفعه، فما فخلق الله خلقاً ثم فضفعه. فإذا علم العبد أن رزقه مكفول، وأن خزائن الله ملأف، وأنه تعالى كرفم جواد، فطعم وفسقف فف من حاده وصد عنه؛ فكف فبولفه وصففه؟! إذا علم العبد ذلك كله انشرح صدره، وزال عازب همه: ﴿ وَمَا فف دَابَّتْ فف الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رَزُقُهَا ففعلم مسقرها ومسنود عنها كل فف كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (هوء: ٦).

لقد هيا الله لعبده السبل ليطلب الرزق منه، فهو الرزاق ذو القوة المتين: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ١٧).

إن على المؤمن أن يحسن ظنه بربه، فالله لا يريد له إلا الخير، وهو الذي وعد عبده بذلك، ووعد الوعد الصدق، أما الشيطان فهو الذي يقنطه ويخوفه من الفقر وعواقبه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۗ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

ولما نهى الله رسوله أن يأذن لأحد من المشركين بالاقتراب من المسجد الحرام لأنهم نجس خشي بعض الصحابة الفقر؛ وذلك أن أهل مكة كانت معاشهم من التجارات، وكان المشركون يأتون مكة بالطعام والميرة، فلما منعوا من دخول الحرم خاف بعض المسلمين أن يضيق عيشهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنْ شَاءَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٢٨).

قال عكرمة: فأغناهم الله عز وجل بأن أنزل عليهم المطر مدراراً فكثر خيرهم. وقال مقاتل: أسلم أهل جدة، وصنعاء وجريش من

اليمن، و جلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة، فكفاهم الله ما كانوا يخافون^(١).
 وفي مواطن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ربما نفث الشيطان في
 رُوع العبد، فجعله يتباطأ في النفقة خوف الفاقة والعوز؛ فيأتي القرآن
 ليذكره بأن ما ينفقه مخلوف عليه، وأن الله سيعوضه إن في الدنيا، وإن
 في الآخرة، وإن فيهما جميعاً! يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ
 لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ
 خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ: ٣٩).

وقال ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق أنفق عليك»^(٢).
 وأما ما ينتظر العبد من الجزاء الأوفى إذا وافى ربه؛ فهو من
 أعظم ما يدفعه للبذل، ويبعد عنه شبح الفقر ووساوس الشيطان.
 يقول جل شأنه: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِّمَاعِ وَالْتِهَارِ سِرًّا
 وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٤). وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ
 كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
 يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ
 فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر: ٢٩ - ٣٠).

(١) قول عكرمة ومقاتل انظره في: تفسير البغوي ٤/٣٢.

(٢) رواه البخاري ٢/٦٩٠ رقم (٤٦٨٤)، ومسلم ٢/٦٩٠ رقم (٩٩٣) عن أبي

وَمَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ يَرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَقَدْ عَقَدَ صَفْقَةً
 مع الله مضمونة الأرباح، فلا خوف من خسارة وكساد: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ
 يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ
 مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١).

وتأمل معي إلى هذا الأنموذج العجيب من أحد أصحاب رسول
 الله ﷺ ممن امتلأت قلوبهم يقيناً بما عند ربهم، وحسن ظن في كرمه
 ورحمته، وتفاهلاً بالعِوض والخلف من الله، فهان عليه المال، وصار
 أرخص في يده من التراب، لأن ما عند الله خير وأبقى.

إنه أبو الدحداح الأنصاري ﷺ ذلك الذي هانت عليه الدنيا،
 فعقد صفقة مع الله فما قال ولا استقال!

عن زيد بن أسلم قال: لما نزل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهَ قَرْضًا
 حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٥) قال أبو
 الدحداح: فذاك أبي وأمي يا رسول الله، إن الله يستقرضنا وهو غنيٌّ
 عن القرض؟! قال: «نعم يريد أن يدخلكم الجنة به!». قال: فإني إن
 أقرضت ربي قرضاً يضمن لي به ولصبيتي الدحداحةٍ معي الجنة؟
 قال: «نعم». قال: فناولني يدك؛ فناوله رسوله الله ﷺ يده؛ فقال:
 إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية، والله لا أملك
 غيرهما، قد جعلتهما قرضاً لله تعالى! فقال رسول الله ﷺ: «اجعل
 إحداهما لله، والأخرى دعها معيشة لك ولعيلالك». قال: فأشهدك

يا رسول الله أني قد جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائط فيه ستائة نخلة! قال: «إذا يجزيك الله به الجنة!». .

فانطلق أبو الدحاح جذلاً لا تكاد تسعه الدنيا من الفرح، حتى جاء إلى زوجته أم الدحاح وهي مع صبياتها في الحديقة تدور تحت النخل، فأنشأ يقول:

هَدَاكَ رَبِّي سُبُلَ الرَّشَادِ
 إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالسَّدَادِ
 بَيْنِي مِنَ الْحَائِطِ^(١) بِالْوِدَادِ
 فَقَدْ مَضَى قَرْضًا إِلَى التَّنَادِ
 أَفْرَضْتُهُ اللَّهُ عَلَى اعْتِمَادِي
 بِالطَّوْعِ لَا مَنٍّ وَلَا ارْتِدَادِ
 إِلَّا رَجَاءَ الضَّعْفِ فِي الْمَعَادِ
 فَارْتَحَلِي بِالنَّفْسِ وَالْأَوْلَادِ
 وَالْبِرُّ لَا شَكَّ فَخَيْرٌ زَادِ
 قَدَّمَهُ الْمَرْءُ إِلَى الْمَعَادِ!

(١) قوله: «بيني من الحائط» أي: فارقيه، والبينونة: الفراق، ومنه قول كعب بن زهير: بانن سعاد فقلبي اليوم متبول منيتم إثرها لم يفد مكبول انظر: تاج العروس ٣٤ / ٢٩٣، المعجم الوسيط ١ / ٧٩.

فماذا كان ردُّ أمِّ الدحداح؟ هل ولّوتُ واعتزّضت وهي تسمع هذا النبأ من زوجها؟ إنها ستخرج من البيت والبستان الذي آواها وأولادها ومُتّعت بها زمناً طويلاً!

لقد كان الجواب من هذه المرأة الصالحة التي سكن الإيمان قلبها، واستقرَّ حسنُ الظنِّ بربها في سويدائه أن قالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح! بارك الله لك فيما اشتريت! بل وترنّمت بأبيات شعرية تعبّر عما يجول في نفسها من الفرح والاطمئنان لكريم موعود الله، فقالت:

بَشْرَكَ اللّٰهُ بِخَيْرٍ وَفَرَحٍ
مِثْلِكَ أَدَى مَا لَدَيْهِ وَنَصَحٍ
قَدَّمَتَعَ اللّٰهُ عِيَالِي وَمَنَحٍ
بِالْعَجْوَةِ السَّوْدَاءِ وَالزَّهْوِ الْبَلْخِ
وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَلَهُ مَا قَدْ كَدَحَ
طُورَ اللَّيَالِي وَعَلَيْهِ مَا اجْتَرَحَ!

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تُخرج ما في أفواههم، وتنفض ما في أكمامهم من التمر، وهي تقول: قوموا فقد أقرضناه لربي عز وجل! يا الله!! كم يفعل الإيمان بأهله؟!

إن هذه المرأة الصالحة حفنا كانت تُخرج التمر من أفواه صبفتها لكأنها تتنزع قلبها من بفن جوانحها، ولكنها الجنة! ولأجل الجنة ففون كل شفاء!

وقد كان لهم ذلك بشارةً على لسان رسول الله ﷺ حين قال: «كم من عذق رءاح^(١) وءار ففءاح^(٢) لأبف الءءاح!»^(٣).

ومما فذكر به القرآن فف موضوع الءزع والشاؤم حين ففبتلى المرء بالفقر الإشارة إلى أن المال ففنة، وقد فكون سبباً لانءراف العءء عن طرفق الله، ففكون تلك هف الءسارة الءقة ولفست ءسارة المال والمئاع، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْآءْسِرِينَ الَّذِينَ ءَسَرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ فَوْمَ الْقَفِئْمَةِ أَلَا ذَلِكُ هُوَ الْآءْسِرَانُ الْمَفِينُ﴾ (الزمر: ١٥).

٣) ومما جاء القرآن الكرفم به لفطمئن الفقفر، ولفرضى بما قسم الله له؛ الإشارة إلى أن الغنى قد تكون عواقبه وءفمة على من رزقه! فقد فبتلى الله عبءه بالفنى فففسى بذلك ربّه، وفنشغل

(١) «رءاح» أئ: ثقفلة لكثرة ما ففها من الثمار. انظر: المءكم ٣/ ٢٥٩، المعجم الوسفط ٣٣٧ / ١.

(٢) الففءاح والأفففء: الواسع. انظر: غربف الءءف لابن قفبفة ١/ ٥٦٩.

(٣) انظر مءمل القصة فف: الءءاةة إلى بلوغ النفاةة ١/ ٨١٣، ففسفر ابن أبف ءاتم ١٠ / ٣٣٣٩، الكشف والبفان ٢ / ٢٠٧، ففسفر القرطبف ٣ / ٢٣٧. وءبر أبف الءءاح ورفء بروافاء وأسانفء مءءلفة لا ءءلو من مقال؛ لكن بعضها ففشد بعضها. انظر: فعلقف شعفب الأرناءوط (وأءرفن) على مسنء الإمام أءمء ١٩ / ٤٦٥ ءءفء رقم (١٢٤٨١).

بهذا المال عن طاعة مولاه: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ (الإسراء: ٨٣)، وربما يجعل الله من أسباب طغيان العبد استغناؤه بالمال، كما قال سبحانه: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِّيْقَىٰ ۗ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَىٰ ۗ ﴾ (العلق: ٦ - ٧).

لقد أتى الله قارون مالا عظيماً وزهباً وفيراً حتى إن مفاتيح الخزائن لذلك المال ليثقل حملها على الجماعة من الرجال الأشداء، ومع ذلك فهي تتعبهم في حملها لكثرتها! قال الله تعالى: ﴿ وَءَايَاتُهُ مِنْ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَىٰ ﴾ (القصص: ٧٦). وقد جاء في بعض الآثار إنها كانت تُحمل على ستين بغلاً! (١).

لقد كان قبل الغنى رجلاً صالحاً من أحسن بني إسرائيل صوتاً بالتوراة! قال قتادة: «كان يسمّى (المنور) من حسن صوته بالتوراة، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه الله ببغيه لكثرة ماله!» (٢).

وكان يُنصَح ويُذكَر بفضل الله عليه، وأن ما هو فيه من نعيم فمرده إلى الله، ولكنه أبى ذلك ونسب الفضل لنفسه فقال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ ﴾ (القصص: ٧٨). فلما رأى الله ذلك منه أذاقه

(١) انظر: تفسير الطبري ١٩/٦١٧، تفسير ابن أبي حاتم ٩/٣٠٠٧، تفسير البغوي ٦/٢٢٠.

(٢) تفسير الطبري ١٩/٦١٦، تفسير ابن كثير ٦/٢٥٣.

العذاب الوبيل، قال الله: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْأُمْنَتِصِرِينَ ﴾ (القصص: ٨١).

وأما الفقراء الذين كانوا يغبطونه أول الأمر على ما هو فيه من نعيم، ويتمنون أن يكون حالهم كحاله؛ فقد عرفوا فضل الله عليهم بأنه لم يفتنهم كما فتنته: ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (القصص: ٨٢).

إن الموفق حقاً هو مَنْ يرضى بما قسمه الله له فإن ذلك هو الخير؛ لأن الله لن يختار لعبده المؤمن إلا ما هو خير له.

والله تعالى حكيمٌ يعلم ما يصلح لعبده، فليس كلُّ الناس يصلح له الغنى، كما أنه ليس كلهم يصلح له الفقر!

وقد روي في الحديث القدسي: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر، ولو أغنيته لكفر!»^(١).

وقد حكى الله لنا عن رجل كان في عهد رسول الله ﷺ فقيراً فسأل الله الغنى، وعاهد ربه أن يكون صالحاً منفقاً في سبيل الله إن

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣١٨، والدليمي في الفردوس ٥/ ٢٥٠ رقم (٨١٠٠)، والبعوي في شرح السنة ٥/ ٢١ رقم (١٢٤٩) عن أنس رضي الله عنه، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٤٥، والألباني في السلسلة الضعيفة ٤/ ٢٥٠ رقم (١٧٧٤). والحديث وإن كان سنده ضعيفاً إلا أن معناه صحيح.

أوتي المال، فاستجاب الله له فكان حاله أسوأ الحال، حيث أطغاه المال وأنساه ذكر ربّه، فعاقبه الله بعقوبة شديدة، حيث طمس على قلبه فصار منافقاً خالصاً والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٧٥﴾
 فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿التوبة: ٧٥-٧٧﴾.

وهذا يتضح أن الجزع والتسخط من الفقر وقلة ذات اليد ليس من صفات المؤمنين، فإن المؤمن يرجو بفقره - إن ابتلي به - عظيم الأجر عند الله، والسلامة من فتنه المال التي أغوت أكثر الخلق، عندها يطمئن قلبه لاختيار الله له، وترتاح نفسه لما كتب الله عليه، ويحيا متفائلاً بعبايا ربّه له؛ فإن في طيات المحن منحة لا يدري العبد عنها حتى يكشفها الله له، وعندها يعلم علم اليقين أن اختيار الله له كان خيراً من اختياره لنفسه.

الفرع الثالث: التفاؤل عند فقد الأولاد وموتهم:

الأولاد من بنين وبنات إحدى نعم الله على عبده متى ما أصلحهم الله وكانوا بررة بوالديهم، ولهذا قال جل شأنه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦).

وقد يُبتلى المرء في هذا الباب بأنواع من البلاء: إما بحرمانه من الذرية، أو بالخوف عليهم، أو بفقدانهم.

وبناء على ما سبق فسيكون الحديث هنا حول هذه الجوانب، وكيف بثَّ القرآن الكريم الفأل الحسن في نفوس من ابتلي بها.

١) الحرمان من الذرية:

كما سبق فالأولاد نعمة من الله، يهبها من يشاء من عباده، وقد يجرم منها آخرين، وله الحكمة البالغة في ذلك، ولا راد لأمره، فالخلق خلقه، والحكم حكمه: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، لذلك قرر الله هذا الأمر لتطيب نفس من حُرِمَ الذرية بأن الحكمة يعلمها الله وحده.

ومنع المرء من الذرية أو الحرمان منهم هو محض مشيئة الله وحده، وليس للبشر فيه صنع، كما قال جل في علاه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئِنَّهَا وَبَهْبٌ لِمَنْ يَشَاءُ

الذِّكْرُ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجَهُمْ دُكْرَانًا وَإِنشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿الشورى: ٤٩ - ٥٠﴾. والحرمان من الذرية لا يقال بأنه عقوبة

من الله، كما أن منحه الذرية للمرء لا يدل بالضرورة على الرضا!

ومع أن الإنسان قد يُبتلى بالحرمان من الذرية إلا أن القرآن الكريم جاء ليزرع الأمل في نفس ذلك المبتلى بهذا البلاء بأن لا يقنط من رحمة الله، فإن الذي منعه الولد قادر على أن يهبه له!

وتأمل كيف حكى الله لنا نماذج من عباده الذين حُرِّموا الأولاد فدعوا ربهم وصدقوا في اللجأ إليه، فاستجاب لهم ووهبهم ما أمَّلوا وزيادة!

دعا الخليل إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يهبه ذرية صالحة وكان شيخاً كبيراً، والأعجب من ذلك أن زوجته كانت كذلك طاعنة في السن؛ بل وعقياً لا تنجب! ومع ذلك وهبهم الله ولداً صالحاً كان نبياً من الأنبياء وهو إسحاق عليه السلام، بل زادهم أن جعل حفيدهم من هذا الولد نبياً أيضاً وهو يعقوب عليه السلام، يُمتعون بهما في حياتهما رحمة من الله وفضلاً.

لقد دعا الخليل إبراهيم فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصفات: ١٠٠)، فجاءته البشرى على لسان ملائكة الله حين زاروه، كما حكى الله ذلك بقوله: ﴿قَالَتْ يَنْوِلَتْنِي ۖ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي

سَيِّحًا إِنَّ هَذَا الشَّيْءُ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ
وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ (هود: ٧٢-٧٣).

ومثل الخليل نبيُّ الله زكريا حيث دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي
فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٩). وحكى الله عنه كيف كان
يتملق ربه ويمسح الظن بمولاه فيدعوه دعاء مخبتاً خفياً: ﴿إِذْ نَادَى
رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم: ٣)، فجاءته البشرى: ﴿يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نَبِّشُرُكَ
بِعَلْمٍ أَسْمَهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٧). بل وجعله
الله نبياً من أنبيائه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً
وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ
وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ١٢-١٥).

سبحان الله! تأمل كيف أن كل هذه الكرامات والفضائل تواتر
عليه! فهل يقنط محروم بعد ذلك من فضل الله وسعة رحمته؟!

٢ موت الأولاد:

وقد يهب الله عبده الولد، ثم يصطفيه إليه، فتظلم الدنيا في وجه
الوالد، ويعظم كربته وبلاؤه، وحقَّ له ذلك؛ فإن فقد الولد إحدى
رزايا الدهر، ولا يعرف هذا الأمر إلا من تجرَّع مرارة الفراق، وعلقم
الحرمان!

هذا الشاعر ابن الرومي حين فقد ولده محمداً بكاه بقصيدة
أبكت الحجر والمدر، وأسبلت الدموع من محاجر العيون، ومما قال
في ذلك:

تَوَخَّى حِمَامُ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صَبِيَّتِي
فَلِلَّهِ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعِقْدِ
عَلَى حِينِ شِمْتُ الْحَيْرِ مِنْ لَمَحَاتِهِ
وَأَنْسْتُ مِنْ أَفْعَالِهِ آيَةَ الرَّشْدِ
طَوَاهُ الرَّدَى عَنِّي، فَأُضْحَى مَزَارُهُ
بَعِيداً عَلَى قُرْبٍ، قَرِيباً عَلَى بُعْدِ
لَقَدْ أَنْجَزْتَ فِيهِ الْمَنَايَا وَعَيْدَهَا
وَأَخْلَفْتَ الْأَمَالَ مَا كَانَ مِنْ وَعْدِ
لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ الْمَهْدِ وَاللَّحْدِ لَبْنُهُ
فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ الْمَهْدِ إِذْ ضُمَّ فِي اللَّحْدِ
أَلْحَ عَلَيْهِ النَّزْفُ حَتَّى أَحَالَهُ
إِلَى صُفْرَةِ الْجَادِيِّ عَنِ حُمْرَةِ الْوَرْدِ
وَوَظَلَ عَلَى الْأَيْدِي تَسَاقَطُ نَفْسُهُ
وَيَذْوِي كَمَا يَذْوِي الْقَضِيبِ مِنَ الرَّنْدِ

فِيَاكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا
تَسَاقُطُ دُرٌّ مِنْ نِظَامٍ بِلا عَقْدٍ
عَجِبْتُ لِقَلْبِي كَيْفَ لَمْ يَنْفَطِرْ لَهُ
وَلَوْ أَنَّهُ أَقْسَى مِنْ الْحَجَرِ الصَّلْدِ
بِوَدِّي أَنِّي كُنْتُ قَدْ مُتُّ قَبْلَهُ
وَأَنَّ الْمَنَايَا دُونَهُ صَمَدَتِ صَمْدِي
وَلَكِنَّ رَبِّي شَاءَ غَيْرَ مَشِيَّتِي
وَلِلرَّبِّ إِمْضَاءُ الْمَشِيئَةِ لا الْعَبْدِ
وإِنِّي وَإِنْ مُتُّتُ بِإِنِّي بَعْدَهُ
لَذَاكِرُهُ مَا حَنَّتِ النَّيْبُ فِي نَجْدِ
وَأَوْلَادُنَا مِثْلُ الْجَوَارِحِ، أَيُّهَا
فَقَدْنَاهُ كَانَ الْفَاجِعَ الْبَيْنَ الْفَقْدِ! (١)

أجل! المصاب جلل، والبلاء عظيم، ولكن ما الحيلة وهذا ما
قدرة الله وأراده؟!

لقد جاء القرآن معزياً لأولئك المصابين بفقد أولادهم، باثاً في
نفوسهم عظيم الرجاء بما يؤملونه حين يصبرون على هذا البلاء،

(١) ديوان ابن الرومي ١/ ٤٠٠.

يقول عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧). يا لها من كرامات عظيمة تعزّي كل مكروب وتُعظم أمله في ربه!.

ذكر الأصمعي قصةً حصلت له يقول: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدنا نحوها فسلمنا، فإذا امرأة تردُّ علينا السلام، قالت: من أنتم؟ قلنا: قومٌ ضالون - يعني تائهون عن الطريق - رأيناكم فأنسنا بكم، قالت: يا هؤلاء ولّوا وجوهكم عنّي حتى أقضي من حقكم ما أنتم له، ففعلنا. فألقت إلينا مسحاً فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني، ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردّها إلى أن رفعته مرة فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ولدي، وراكبه ليس بولدي! قال: فوقف الراكب عليها وقال: يا أمّ عقيل أعظم الله أجرك في عقيل ولدك! قالت: ويحك مات ولدي؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمته في البئر! فقالت هذه المرأة الصابرة: انزل واقض ذمام القوم - أي حق الضيوف - ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه وقرب إلينا الطعام! فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقالت: يا قوم هل فيكم أحدٌ يحسن من كتاب الله عز وجل شيئاً، قلت: نعم، قالت: فاقرأ عليّ آياتٍ أتعزّي بها عن

ولدي! قلت: يقول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧). قالت: الله إنها في كتاب الله هكذا؟ قلت: والله إنها لفي كتاب الله هكذا! قالت: السلام عليكم. ثم صفت أقدامها وصلت ركعات، ثم قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله أحاسب عقيلاً! ثم قالت: اللهم إني فعلت ما أمرتني به فأنجز لي ما وعدتني، ولو بقي أحدٌ لأحدٍ لبقني محمد ﷺ لأمته!

قال الأصمعي: فخرجت وأنا أقول: ما رأيت أكمل منها ولا أجزل! ذكرت ابنها بأحسن خصاله وأجلّ خلاله، ثم لما علمت أن الموت لا مدفع عنه، ولا محيص عنه، وأن الجزع لا يجدي نفعاً، وأن البكاء لا يردّ هالكاً رجعت إلى الصبر الجميل، واحتسبت ابنها عند الله عز وجل ذخيرة نافعة ليوم الفقر والفاقة.^(١)

وحين ذكر الله عز وجل أن المال والبنين هم زينة الحياة الدنيا أعقبها بقوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ (الكهف: ٤٦). وكأنها تعزية لمن فقد الولد والمال بأن الباقي من الأعمال الصالحة هو الربح الحقيقي والمتجر الرابع، ومن جملة العمل الصالح الصبر على فقد الولد.

(١) المجلس الصالح والأنيس الناصح للمعاني بن زكريا ٢/١٢٩.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «بخ بخ! وأشار بيده الخمس، ما أثقلهن في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يُتوفى للمرء المسلم فيحتسبه!».^(١)

ولقد فهم هذا المعنى الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز رحمه الله؛ حين فقد أحبَّ ولده إليه وهو عبد الملك، فكان يقول: «يا بني! لقد كنت في الدنيا كما قال الله جل ثناؤه: ﴿أَمْأَلُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦) ولقد كنت أفضل زيتتها، وإني لأرجو أن تكون من الباقيات الصالحات التي هي خير ثواباً وخير أملاً»^(٢).

٣ ضياع الأولاد وفقدانهم:

ولأن مصائب الدنيا متنوعة فقد يصاب المرء بغياب ولده عنه، فلا يدري أهو حيٌّ فيرجى أو ميت فينسى؟! وتلك لعمر الله بليّة ربها فاقت ما سبقها!

وإذا أراد الله بعبده خيراً فإنه يثبتته، ويملاً قلبه بحسن الرجاء والفعال، فيؤمّل في الله أن يرده له ضالته، ويعيد إليه فلذة كبده.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٦١٨/٢٩ رقم (١٨٠٧٦)، والنسائي في السنن الكبرى ٧٤/٩ رقم (٩٩٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان ٢١٦/١٢ رقم (٩٢٩٩) عن أبي سلمى رضي الله عنه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٧/١: «رجالها ثقات»، وصححه الألباني في: صحيح الترغيب ١/٦٣٦ رقم (١٠٥٧).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٥١/٣٧.

وقد حكى الله لنا في القرآن أنموذجاً من نماذج المبتلين الصابرين
بهذه البلوى ليكون عزاءً وأملاً لمن أصيب بغياب ولده.

إنه نبيُّ الله الصابِرُ يعقوبُ عليه السلام الذي فقد ثلاثة من
أولاده: يوسف وبنيامين وأخاهما الأكبر!

وقصة يعقوب التي حكاها القرآن قصة تذيب القلوب لما فيها من
ذكر الابتلاءات المتكررة على هذا الرجل الصالح! لهذا كان عمر بن
الخطاب رضي الله عنه إذا قرأ سورة يوسف لا يملك دموعه الغزار تجري على لحيته.

يقول عبدالله بن شداد: «سمعت نسيح عمر وأنا في آخر
الصفوف يقرأ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) (يوسف: ٨٦).

لقد كان نبيُّ الله يعقوب مع شدة ما لقي من البلاء عظيمَ التفاؤل
بالله تعالى، فلم يقطع الأمل مع تكرار فقد أولاده، بل كان يردّد:
﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا﴾ (يوسف: ٨٣). وهذا ما لا مفرّ للمرء منه، فقد
وقع البلاء فلا بدّ من الصبر حينها، ولكن مع الصبر فألّ حسن، وأملٌ
في الله لا ينقطع: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ (يوسف: ٨٣).
وليس يوسف فقط! لأن المؤمنَ فيه هو الذي يُخرج الخبء في
السموات والأرض!

(١) رواه البخاري ١/ ١٤٤ رقم (٧١٦).

وقد كان له ذلك كله! فقد جمع الله شمله بأولاده جميعاً، وردَّ إليه بصره الذي فقده من كثر البكاء!

وفقد يوسف لم يكن شهراً أو سنة، بل كان أربعين سنة كما ذكره غير واحد من المفسرين!^(١).

وهذا ما يدل عليه سياق القصة، فإنه فقد ولده وهو غلام صغير، والتقى به بعد أن كان عزيز مصر، ولذلك لما التقى به إخوته عرفهم وهم له منكرون!

وفي كل هذه المدة الطويلة كان يعقوب عليه السلام يعيش على أمل اللقاء بريحانة فؤاده يوسف، حتى إن أولاده عجبوا من كثرة ذكر أبيهم ليوسف، وعدم قنوطه من رجعته مع تقادم العهد وطول السنين فقالوا له: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف: ٨٥). فكان يرد عليهم بأن خلوا بيني وبين ربي، فإنما شكواي له لا إلى غيره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَّ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٨٦). ثم يتجلى عظيم أمل هذا العبد الصالح في ربه وتفاؤله بعودة يوسف فيقول: ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكٰفِرُونَ﴾

(١) انظر: تفسير الطبري ١٦/٢٧١، الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/٣٦٤٠، الكشف والبيان ٥/٢٥٩.

(يوسف: ٨٧). يا لهذه النفس المتفائلة! ويا لهذا القلب المكلوم! ولو لم يكن لدى يعقوب هذا الفأل هلك من شدة البلاء وعظيم المصاب!

٤) الخوف على مستقبل الأولاد:

وقد يُبتلى المرء بالخوف على مستقبل أولاده؛ إما في حال حياته، أو بعد مماته.

فأما في حال حياته فقد يخشى عليهم الفاقة والفقر، فيصاب بالهمّ لما يرى من المعطيات أمامه، فالحياة تكاليفها صعبة، والأولاد لهم مطالب وحاجات لا يقوى على القيام بها، وربما خاف عليهم المرض والموت ونحو ذلك.

ومثل هذا الشعور لدى الوالدين قد يحصل كثيراً وخاصة في واقعنا اليوم بعد أن ضعف تعلق أكثر الناس بالله، واعتمدوا على الأسباب المادية مجردة عن مسببها تبارك تعالى.

وما أكثر ما يردّد الآباء: نريد أن نؤمن مستقبل أولادنا!، وكأن أمر المستقبل بأيديهم! إن أحدهم لا يملك أمر مستقبله هو فضلاً عن مستقبل غيره!

لذلك جاء القرآن الكريم لِيُطْمَئِنِّ الْمُؤْمِنُ بِأَنَّ الرِّزْقَ مَكْفُولٌ لَهُ ولأولاده؛ لأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

المبحث الثاني: أسلوب القرآن في تربية النفوس على التفاهل

وقد نحا الله على أهل الجاهلية ما كانوا يفعلونه - وهو موجود اليوم في بعض البيئات - من قتل أولادهم خشية الفقر، فقال:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام: ١٥١)، فلم الخوف إذن من المستقبل والله قد وعد برزقهم؟! ونجد كذلك أن الله أمر بالنفقة على الزوجة والأولاد بالمعروف، وعدم اليأس من رزق الله حتى لو كان المرء فقيراً، فإن الرزق آتٍ، وسيبدل الله بالحال ما هو خير، قال تعالى: ﴿ لِنُفِقَ ذَوْسَعَةً مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: ٧). فمع العسر يأتي اليسر، ومن رحم المعاناة ينبثق نور الأمل: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح: ٥ - ٦).

قال عمر رضي الله عنه: «إنه لم تكن شدة إلا جعل الله بعدها مخرجاً، ولن يغلب عسرٌ يسرين»^(١).

ويزداد الخوف عند أكثر الآباء والأمهات على أولادهم في ساعة الموت حين يكون الفراق، وذلك أنهم يتذكرون أن أولادهم من بعدهم لا عائل لهم، فيشتد القلق والخوف على مصيرهم.

(١) رواه ابن أبي شيبة ٤/ ٢٢٢ رقم (١٩٤٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٣٥٩ رقم (٩٥٣٨).

وقد عالج القرآن الكريم هذا الأمر بأن ألقى على قلوب الوالدين المبشرات بأن الله هو كافلهم من بعدهم، وأن لا خوف عليهم؛ لكن ذلك مشروط بتحقيق تقوى الله، والقيام بحقوق الناس، وعدم ظلمهم، يقول الله تعالى: ﴿وَلِيَخَشَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩). فإذا كان العبد حال حياته متّقياً لربه، بعيداً عن ظلم الناس وانتهاك حرمتهم؛ فإن الله يحفظ له ذريته من بعده، فلا ينالهم ظلمٌ وفاقة.

ومما يذكر في هذا الباب أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز حين وافاه الأجل قالوا له: يا أمير المؤمنين! أفغرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء ولا شيء لهم! فقال: أدخلوهم عليّ، فجيء بهم - وكانوا بضعة عشر صبياً - كأنهم أفراخ! فلما رأهم رق لهم وبكى، وقال: بنفسي من تركتهم ولا مال لهم! فقال له محمد بن مسلمة: يا أمير المؤمنين! أوص بهم إليّ، فقال عمر: يا بنيّ؛ إن أباكم قد خيّر بين أن يترككم فقراء ويدخل الجنة، وبين أن يترككم أغنياء ويدخل النار، وإني اخترت أن تكونوا فقراء وأدخل الجنة! إن وليي فيكم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. ثم مات - رحمه الله ورضي عنه -.

وقد حكى بعض الرواة أن أولاد عمر شوهوا بعد عشرين سنة وهم يُسرجون الخيول في سبيل الله، وأما أولاد بعض خلفاء بني أمية فقد كانوا يسألون الناس في مسجد السلام في بغداد^(١)!

(١) حسن السلوك للموصلي، ص ٨٤.

الفرع الرابع: التفأؤل عند عدم الوفاق الزوجفء:

الحفءة الزوجفة لا تصفو لكل أءء؁ فقد تقع مكدرات تفسو رونق الحفءة بفن الزوجفن. ومن أعظم تلك المكدرات أن لا فءء الحب والتوافق بفن الزوج وزوفءه؁ فءءء عند ذلك الخصومات والمنازعات؁ وءظلم الدنيا فف وجه الزوج والزوفة؁ وربما فءسا من إصلاء الحال!

وقد عالج القرآن الكرفم هذه المعضلة بأن أمل الزوجفن فف الخفر الذي فنتظرهما حتى ولو لم فكن بفنهما مءبة وأفة. فقول الله تعالى للآزواج: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَفَجَعَلَ اللَّهُ ففءه خفراً كَثفراً ﴾ (المءءءة: ١٩).

وتأمل كفف نكر كلمة (خفراً)؁ ثم وصفه بقوله: (كثفراً)؛ لفملاً نفس ذلك الزوج الذي لم فءء فف قلبه مودة لزوفءه بالفأل والخفر الكفر؁ فما كل ما فكرهه الإنسان فكون شراً!

فمن الخفر للزوج ففن ففقف زوجءه ولو كان كارهاً لها ما فئاله من الأءر عند الله بسبب صبره علفها؁ والصابرون فوفون أءورهم بففر حساب.

وقد فرزق الزوج من زوجءه الفف لم فءبها أولاءاً صالحفن؁ وتلك من زفنة الحفءة الدنيا؁ وقد تكون تلك المرأة سبب رزق له فف أمر معاشه؁ وذلك أنفا فف ففاة الأمر امرأة مسءضعفة؁ فإءسانه إلفها؁ واءءمال ما قد فئاله من ضفق بسببها ربفا فكون من أسباب إءءاق الله الخفر علفه!

يقول النبي ﷺ: «أبغوني ضعفاءكم، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»^(١).

وليس الحبُّ وحده كافياً لإصلاح البيوت وإضفاء السعادة عليها، كما أن انعدامه لا يعني بالضرورة فسادها واستحالة العيش فيها. ولهذا قال عمر الفاروق رضي الله عنه: «ليس كل البيوت تُبنى على الحب، ولكن معاشرَةً على الإحسان والإسلام»^(٢).

ومع ذلك كله فلا ينبغي للزوجين إذا كره أحدهما الآخر أن يئأس من حصول الحبِّ ولو بعد حين؛ فإن القلوب بيد الله، وقد يعطفُ اللهُ قلب كل منهما على الآخر فيحدث الحب مع طول العشرة وحصول الولد.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في حصول المودة بعد العداوة والبغضاء، فقال تعالى للمؤمنين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَادْتُمْ مِنْهُمْ مودةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المتحنة: ٧).

فإذا كان هذا الحب والمودة حصل بين أعداء متقاتلين فحصوله بين زوجين تجمعهما أواصر كثيرة من باب الأولى.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٦٠/٣٦، والترمذي في سننه ٤/٢٠٦ رقم (١٧٠٢) عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: حديث حسن صحيح. وانظر: السلسلة الصحيحة ٤٠٨/٢ حديث رقم (٧٧٩).

(٢) شرح السنة ١٣/١٢٠، كنز العمال للهندي ١٦/٥٥٥ رقم (٤٥٨٥٩).

الفرع الخامس: التفاؤل بمغفرة الله وعدم اليأس من رحمته:

النفس البشرية مجبولة على النقص والخطأ، وقد يتهادى الشيطان بالبعد فلا يزال يغويه حتى يغرقه في مستنقع الذنوب والموبقات، وعندها يقنطه من رحمة الله ومغفرته، وكلما همت نفسه بالتوبة وتحرك داعي الإيمان في قلبه حضر الشيطان وصعب عليه الأمر بحجة أن ما قام به ذنب عظيم لا يمكن لمن قارفه أن يتخلص من أدرانه وينعتق من أغلاله!

وكم صدَّ الشيطانُ بهذه الخطرات الآثمة والحيل الماكرة عدداً من الخلق عن التوبة والأوبة إلى الله تعالى، فأصيب أولئك المذنبون باليأس من تغيير أحوالهم وإصلاح واقعهم!

لأجل هذا كان القرآن شفاء لمن أراد الشفاء، وطوق نجاة لمن أراد الحياة الحققة.

إن عدداً كبيراً من آيات القرآن الكريم ليفتح للمذنب باب الأمل في العودة إلى الله، ويزيد الرجاء في إمكانية تغيير واقعه إلى ما هو خير له.

ويمكن أن نتلمس جوانب بثِّ التفاؤل وحسن الظن المذكورة في آيات القرآن لمن وقع في الذنوب وأسرف فيها من خلال ما يأتي:

أولاً: التذكير بسعة رحمة الله وعظيم لطفه بالتائبين:

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً!

فمن تأمل صفات الله وجد التركيز أكثر ما يكون على الصفات التي تُطمع العبد في القرب من ربه، فما أكثر ما وصف الله نفسه بالرحيم والغفور واللطيف وغيرها.

تأمل معي إلى هذه الآية الكريمة: ﴿ نَحْنُ عِبَادِي أَفِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿ (الحجر: ٤٩ - ٥٠)، انظر كيف قدّم الرحمة على العذاب، وتأمل اختياره تعالى لكلمة (عبادي)، وذلك مبالغة في التحبب إليهم مع غناه عنهم، والخطاب بلفظ (عبادي) من أعظم الشرف وأجلّ النداء!

ومما زادني شرفاً وتيهاً

وكدت بأخمصي أطأ الشراً

دخولي تحت قولك يا عبادي

وأن صيّرت أحمد لي نبياً^(١)

ثم إنه تعالى وصف نفسه في الآية الأولى بأنه الغفور الرحيم، وأما في الآية الثانية فجاء الوصف للعذاب بأنه العذاب الأليم، ولم يصف نفسه بالمنتقم أو الجبار، وذلك ليين حبه للمغفرة، فالعفو

(١) ينسب البيتان للقاضي عياض. انظر: غذاء الألباب للسفاري ٢/ ٣٧٢.

أحبُّ إلفه من العقوبة؛ ولئلا يقنط العبد من رحمته وسعة فضله.

عن أبو هريرة رضي الله عنه قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رهط من أصحابه يضحكون ويتحدثون فقال: «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبكى القوم! فأوحى الله عز وجل إليه: يا محمد لم تقنط عبادي؟! فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أبشروا وسددوا وقاربوا»^(١).

وتأمل معي إلى هذه الآية الكريمة وكيف فتح الله فيها باب الرجاء وحسن العاقبة والمآل لمن تاب إليه ولو كان مسرفاً في ذنوبه، مبالغاً في تفريطه في جنب ربه، فالله يغفر ذلك كله! قال تعالى:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣). وكل كلمة في هذه الآية تمتلئ بحزمة كثيفة من الفأل والرجاء!

(قل يا عبادي)، والنداء بـ(يا عبادي) له معنى خاص كما سبق.

(الذين أسرفوا على أنفسهم) ولم يقل: (الذين أذنبوا) فحسب؛

بل ذكر الإسراف، وهو تجاوز الحدِّ في الخطأ والمعصية.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٦ / ٧٧ رقم (١٠٠٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد ١ / ٩٨ رقم (٢٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان ٢ / ٣٤٣ رقم (١٠٢٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٧ / ٥٨٩ رقم (٣١٩٤).

(لا تقنطوا من رحمة الله) فرحمته وسعت كل شيء، ومهما عمل المذنب من المعاصي فرحمة الله تسع ذلك كله!

وكان من دعاء الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - :
«اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك، فإن رحمتك أهل أن تبلغني،
ورحمتك وسعت كل شيء، وأنا شيء، فلتسعني رحمتك يا أرحم
الرحمين!»^(١).

(إن الله يغفر الذنوب) واستعمل الفعل المضارع (يغفر) الذي يدل على الاستمرار للدلالة على أنه تعالى دائم الغفران.

(جميعاً) حتى لا ييأس مذنب، وحتى ينقطع الشك من قلوب المذنبين بأن هناك استثناءً لبعض الذنوب؛ بل رحمة الله تسعها جميعاً.
(إنه هو الغفور الرحيم) وهذه فيها ثلاثة مؤكدات كلها دلائل على سعة مغفرة الله ورحمته:

الأول: استخدام أسلوب التأكيد بـ(إن)، وهي حرفٌ للنصب والتوكيد؛ وفرق بين أن تقول: زيد يفعل كذا، وقولك: إن زيدا يفعل كذا.

الثاني: استخدام ضمير الفصل (هو) والذي يتم الكلام بدونه، لكنه لا يكون بمثل وجوده، لأن ذكره تأكيدٌ أنه تعالى الغافر للذنوب

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٩.

بنفسه، فلفس هناك وسائط بئنه وبن خلقه، فبمجرد أن فمدَّ العبد ففءه للسماء صادقاً مقبلاً بقلبه؛ فإن الله فففر له ولو كانت ذنوبه عدد حبات الرمل أو قطرات البحر! وفف الحديث القدسف: «فا عبافف إنكم تخطئون باللفل والنهار وأنا أفر الذنوب فمفعاً؛ فاستففرونف أفر لكم»^(١).

ففعل الطلب (استففرونف) فاء فوابه (أفر) بلا وساطات، فلم فقل: (فانف سوف أفر لكم) أو (فسأفر)؛ بل فاء الفواب مجرداً من كل ذلك لفطمع عبافه فف مففرته!

الثالث: استعمال اسم (الففور) وهو اسم متضمن لصفة المففرة، فهو تعالى فففر لأن ذلك وصف دائم له. وكل أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف، فهي أعلام باعبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعبار ما دلت عليه من المعانف^(٢).

وكذلك الوصف بـ(الرففم): فزفافة فف الإكرام والففضل على عبده، فلفس شأنه أنه فسامح العبد وفففر له خطأه فحسب؛ بل فوق ذلك فكرمهُ وفئفله من فضله وإنعامه^(٣).

(١) رواه مسلم ١٩٩٤/٤ رقم (٢٥٧٧) عن أبف ذر ؓ.

(٢) القواعد المثلف فف صفات الله وأسمائه الحسنف لابن عثفمفن، ص ٨.

(٣) قال ابن جزف فف التفرفق بفن العفو والمففرة والرفمة: «ألفاظ متقاربة، وببئها من الفرق أن العفو ترك المؤاخذه بالذنب، والمففرة تقتضف مع ذلك الستر، والرفمة فجمع ذلك مع التففضفل بالإنعام». انظر: تفسفر ابن جزف ١/١٣٤.

ثانياً: ومن أساليب القرآن الكريم في بث روح الفأل لدى المذنبين التحذير من القنوط واليأس من مغفرة الله ورحمته.

لقد بشَّع الله حال القانطين اليائسين من جنته ورحمته، فوصفهم بالضالين وبالكافرين، قال تعالى: ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّيَ ۚ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (الحجر: ٥٦)، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف: ٨٧).

وبيّن تعالى أن الذين كفروا بالله هم من اليائسين من رحمته، وليس من جاء ربه مؤمناً تائباً، فقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (العنكبوت: ٢٣).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أكبر الكبائر الشرك بالله لأن الله يقول: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢)، واليأس من روح الله...»^(١).

بل جعل الله تعالى من أجل صفات عباده المؤمنين أنهم يرجون رحمة الله، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢١٨)، وقال:

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٢ / ٢٥٢ رقم (١٣٠٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان ١ / ٤٦١ رقم (٢٨٧).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (الإسراء: ٥٧).

كل هذه الآيات وغيرها كثير جاء في الترغيب في الاتصاف بحسن الظن بالله، والتفأؤل برحمته، وتقبيح القنوط واليأس من عفوه ومغفرته.

ثالثاً: ومن الأساليب التي يعتمدها القرآن في بثّ روح التفأؤل والطمع في رحمة الله إيراد نماذج للتائبين ممن قبلهم الله وتاب عليهم.

فهذا أبونا آدم زلّ ووقع في الذنب حين أكل من الشجرة التي نهاه الله أن يأكل منها: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١٢١)، ولكن ما الذي جرى بعد ذلك؟ ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧).

وهذا موسى عليه السلام يقتل نفساً بالخطأ، فيعترف ويقول: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (القصص: ١٥)، فيستغفر الله ويتضرع إليه بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، فكان الجواب: ﴿فَغْفِرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ومثله داود لما استعجل في الحكم بين الرجلين واستمع إلى أحدهما ولم يتمهل حتى يدي الآخر بحجته، فحكم فعاتبه الله،

﴿ فَاسْتَغْفِرْ رَبَّهُ، وَحَرَّرَ كَعْبًا وَأَنَابَ ﴾ (ص: ٢٤). قال الله: ﴿ فَعَفَرْنَا لَهُ، ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (ص: ٢٥).

وفي عهد رسول الله ﷺ بشر الله رسوله وأصحابه الأبطال بأنه تاب عليهم: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٧).

ثم لم تكن توبته فقط لهؤلاء الذين جاهدوا وصبروا على لأواء الحرب وساعة العسرة، بل وحتى الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة بلا عذر سوى الدعة وإيثار الراحة، وذلك ذنب لا شك فيه، ومع ذلك فقد تاب الله عليهم رحمةً منه وفضلاً لما تابوا وصدقوا في توبتهم: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٨).

بل وحتى من خلطوا عملاً صالحاً بعمل سيئ، لما اعترفوا بذنوبهم عفا الله عنهم وسامحهم: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٠٢).

قال ابن عباس والحسن البصري ومجاهد: «عسى من الله واجبة»^(١).

رابعاً: ومن أساليب القرآن في بث التفاؤل في نفوس العاصين وعدم تقنيطهم من رحمة الله؛ وعدهم بالخير والسعادة في الدارين. ومن ذلك:

(١) حصول محبة الله لهم، وهذا أعظم الخير وأساس كل نعيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢). فهو تعالى يرغب ذلك المذنب ليعود، ويُطعمه في هذا الفضل العظيم وهو حصول محبة الله.

وإذا ظفر العبد بمحبة الله فقد فاز الفوز العظيم! يقول النبي ﷺ: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب مما افترضه عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذته، وما ترددت في شيء ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته!»^(٢).

(١) انظر: تفسير السمعاني ٣/ ٢٢١، المحرر الوجيز ٢/ ١١٩، تفسير القرطبي ٨/ ٩١
(٢) رواه البخاري ٨/ ١٠٥ رقم (٦٥٠٢) عن أبي هريرة ؓ.

٢) المتاع الحسن في الدنيا وحصول الطمأنينة والسعادة.

إن من يُقبل على الله يجد في الدنيا لذة وسعادة لا يجدها أهل القصور وأرباب الملايين! إنها سعادة الإيمان، ولذة القرب من الرحيم الرحمن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»^(١).

ومن أقبل على الله متَّعه من متاع الدنيا قبل أن يوافيه يوم القيامة، قال عز وجل: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِغِّمَكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ (هود: ٣).

ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام يرغبون أقوامهم في الإقلاع عما هم فيه من الضلال بأن الله سيعوّضهم من خير الدنيا قبل خير ونعيم الآخرة!

فهذا نوح عليه السلام يرغب قومه فيقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح: ١٠-١٢)

وهود عليه السلام ينادي قومه نداء المشفق عليهم المرید الخير لهم، فيقول: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ

(١) المستدرک علی فتاوی ابن تيمية ١/١٥٣.

عَلَيْكُمْ مَدَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾
(هوء: ٥٢).

إن الخفر كل الخفر فف لزوم أمر الله وسلوك طرفه القوفم، ومن كان كذلك فهو السعفء حقًا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

ألا إن سعاءة القلب وانسراح الصدر لا فكون بالإسراف فف الشهوات، والرئوع فف حظفرة المعصفة؛ وإنما هو بالأنس بالله والرضا عنه ففما كئب وقءر، وهذا لا فحصل إلا للمؤمنفن الصاءقفن. فقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

قال ابن القفم: «إن طفب النفس، وسرور القلب، وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنفنته وانسراحه ونوره ورحمته وعافففته من ترك الشهوات الممرضة والشبهات الباطلة؛ هو النعمف على الحقفقة، ولا نسبة لنعمف البءن ففله»^(١).

٣) ومن أعظم الأسالف الفف فشحذها القرآن نفوس العاصفن ففقبفوا على الله، ولا فقنطوا من رحمته، وفعث فف قلوبهم

(١) الجواب الكافف لابن القفم، صء ١٢٠.

الأمل في إصلاح حالهم ما ينتظرهم من الجزاء الأوفى حين يلقون ربهم، وذلك هو نعيم الآخرة الذي يتقازم عنده كل نعيم، ويسهل لأجله كل صعب!

يقول الله تعالى منادياً عباده للرجوع إليه، مرغباً لهم فيما عنده:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحریم: ٨).

وحيث عقد الله الصفقة مع المؤمنين فاشترى منهم أنفسهم ووهبهم الجنة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)؛ بين بعدها أن هذه الجنة لمن اتصف بصفات كثيرة كان أولها (التائبون العابدون الحامدون).

فالتائبون إذن هم أخرى الناس بدخولهم جنة الله والتنعيم فيها، وكذلك كل من وقع في فاحشة أو كبيرة فأقبل إلى الله ولم يصر على ما فعل فجزأؤهم: ﴿مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٦).

فنسأل الله أن يجعلنا من عباده التائبين، ويمنّ علينا برحمته
ومغفرته والعتق من ناره. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس المصادر والمراجع

- (١) إحياء علوم الدين، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، (د.ط)، بيروت، دار المعرفة (د.ت).
- (٢) الأدب المفرد، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط ٣، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- (٣) الاستذكار، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري، تحقيق: سالم عطا، محمد علي معوض، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- (٤) البداية والنهاية، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري، (د.ط)، بيروت، دار الفكر، (د. م)، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
- (٥) تاريخ ابن الوردي، ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- (٦) تاريخ دمشق، ابن عساكر علي بن الحسن، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، (د.ط)، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- (٧) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزري، أبو القاسم محمد بن أحمد، تحقيق: محمد سالم هاشم، ط ١، بيروت، دار الكتب

العلمفة؁ ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٨ تفسير ابن أبل حاتم؁ ابن أبل حاتم؁ أبل محمد عبد الرحمن الرازف؁ تحقيق: أسعد محمد الطفب؁ (د.ط) صفءا؁ المكتبة العصرية؁ (د.ت).

٩ تفسير روح البفان؁ الخلوفف إسماعفل حقف بن مصطفف الإستانبولف الحنفف (د.ط)؁ بفروت؁ دار إحفاء التراث العربف (د.ت).

١٠ تفسير روح البفان؁ الخلوفف إسماعفل حقف بن مصطفف الإستانبولف الحنفف (د.ط)؁ بفروت؁ دار إحفاء التراث العربف (د.ت).

١١ تفسير القرآن؁ السمعانف؁ أبل المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار؁ تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغبفم بن عباس؁ ط١؁ الرفاض؁ دار الوطن؁ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٢ تفسير القرآن العظفم؁ ابن كثر؁ أبل الفءاء إسماعفل بن عمر تحقيق: سامف بن محمد سلامة؁ ط٢؁ الرفاض؁ دار طففة للنشر والتوزفء؁ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٣ التمهفء لما فف الموطأ من المعانف والأسانفء؁ ابن عبد البر؁ أبل عمر فوسف بن عبد الله بن عبد البر تحقيق: مصطفف

العلوي ومحمد البكري، القاهرة، مؤسسة قرطبة،
١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(١٤) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة، الكناني،
أبو الحسن علي بن محمد بن عراقي، تحقيق: عبد الوهاب عبد
اللطيف وآخرين (د.ط)، بيروت، دار الكتب العلمية (د.ت).

(١٥) جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير، أبو
السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: عبد القادر
الأرنؤوط، ط ٢، القاهرة، مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح،
١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(١٦) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن
جرير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط ١، بيروت، مؤسسة
الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(١٧) الجامع الصحيح سنن الترمذي، الترمذي، أبو عيسى محمد
بن عيسى السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، ط ٢،
بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٤م.

(١٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد
بن أبي بكر، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط ٢،
القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- (١٩) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، بيروت، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.
- (٢٠) المجلس الصالح الكافي والأئيس الناصح الشافي، النهرواني الجريري أبو الفرج بن زكريا، تحقيق: إحسان عباس، ط١، بيروت، دار عالم الكتب، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- (٢١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، ط١، المغرب، دار المعرفة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- (٢٢) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار، الحضرمي، محمد بن عمر بحرق، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول، (د.ط) بيروت، دار الحاوي، ١٩٩٨م.
- (٢٣) حسن السلوك الحافظ دولة الملوك، الموصلبي الشافعي محمد بن محمد بن عبد الكريم، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، (د.ط)، الرياض، دار الوطن، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- (٢٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، ط٤، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

- (٢٥) خزانة الأدب وغاية الأرب، الأزراي، أبو بكر علي بن عبد الله الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، ط ١، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٨٧ م.
- (٢٦) ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن بسج، ط ٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
- (٢٧) ديوان لبيد بن ربيعة، اعتنى به: حمدو طماس، ط ١، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- (٢٨) ديوان المتنبي بشرح العكبري، العكبري أبو البقاء، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، (د.ط) بيروت، دار المعرفة (د.ت).
- (٢٩) زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، تحقيق: يوسف علي طويل، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- (٣٠) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، ط ١، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع (د.ت).
- (٣١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الألباني، أبو عبد الرحمن، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح، ط ١، الرياض، دار المعارف، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

(٣٢) السنن الكبرى، النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، تحقيق: حسن عبدالمنعم شلبي، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(٣٣) شذا العرف في فن الصرف، الحماوي، أحمد بن محمد، تحقيق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله (د.ط)، الرياض، مكتبة الرشد، (د.ت).

(٣٤) شرح السنة، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش، ط٢، دمشق، بيروت المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٣٥) شعب الإيمان، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد وآخرين، ط١، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(٣٦) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم الدينوري، تحقيق: أحمد شاكر، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

(٣٧) صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، الرياض، ط٥، الرياض، مكتبة المعارف (د.ت).

(٣٨) صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، ط ٥، الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م. ط ١، بغداد، مطبعة العاني، ١٣٩٧هـ.

(٣٩) عمل اليوم والليلة، ابن السنِّي، أحمد بن محمد بن إسحاق الدِّيَنَوْرِيُّ، تحقيق: كوثر البرني، جدة/ بيروت، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن (د.ت).

(٤٠) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، السفاريني، محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، ط ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

(٤١) غريب الحديث، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، تحقيق: عبد الله الجبوري.

(٤٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٤٣) الفردوس بمأثور الخطاب، الديلمي، أبو شجاع شيرويه بن شهردار الهمداني الملقب إلكيا، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول (د.ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٤٤) القواعد المثلئ فف صفاء الله وأسماؤه الحسنئ، العثمفن، محمد بن صالح بن محمد، ط٣، الجامعة الإسلامفة، المدفنة المنورة، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

(٤٥) قوآ القلوب فف معاملة المحبوب، أبو طالب المكف، محمد بن عف بن عطفة الحارثف، آقفق: عاصم إبراهم الكفالف، ط٢، بفروآ، دار الكآب العلمفة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

(٤٦) الكامل فف الآرفخ، ابن الأآفر، أبو الحسن عف بن أوف الكرم محمد بن محمد بن عبد الكرفم الجزرف، آقفق: عمر عبد السلام آدمرف، ط١، بفروآ، دار الكآب العربف، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

(٤٧) الكآب المصنف فف الأحاءفث والآآار، ابن أوف شففة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهم بن عثمان العبسف، آقفق: كمال فوسف الحوآ، ط١، الرفاض، مكآبة الرشد، ١٤٠٩هـ.

(٤٨) كشف الخفاء ومزفل الإلباس عما اشآهر من الأحاءفث على ألسنة الناس، العجلونف، إسماعل بن محمد (د.ط)، القاهرة، مكآبة القدسف، ١٣٥١هـ.

- (٤٩) الكشف والبيان، الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، ط ١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- (٥٠) الكشكول، العاملي، بهاء الدين محمد بن حسين، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- (٥١) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: أبي عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- (٥٢) لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، ط ٣، بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ.
- (٥٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، تحقيق: عبدالله الدرويش، بيروت، دار الفكر، ١٤١٢هـ - ١٩٩٣م.
- (٥٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد

الشافى محمد، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ -
١٩٩٣م.

٥٥) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، أبو الحسن علي
بن إسماعيل المرسي، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، ط ١،
بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٥٦) المستدرک على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية، أبو
العباس أحمد بن عبد الحليم، جمع: محمد بن عبد الرحمن بن
قاسم، ط ١، (د. م)، ١٤١٨هـ.

٥٧) مسند أبي يعلى، أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي
التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، ط ١، دمشق، دار
المأمون للتراث، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٥٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن
حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد،
وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٥٩) مسند الشهاب، أبو عبد الله القضاعي محمد بن سلامة بن
جعفر، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط الثانية،
بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٦٠) المسند الصحيح المختصر، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت).

(٦١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي أحمد بن محمد بن علي المقرئ، ط ٥، القاهرة، المطبعة الأميرية ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م.

(٦٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط ١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

(٦٣) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر - محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، (د.ط)، دار الدعوة (د.م) (د.ت).

(٦٤) الموضوعات، ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، ط ١، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ١٩٦٦هـ - ١٩٦٨م.

(٦٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، تحقيق: إحسان عباس، (د.ط) بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ.

٦٦ الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره
وأحكامه، القيسي أبو محمد مكّي بن أبي طالب حمّوش بن
محمد بن مختار، تحقيق: الشاهد البوشيخي وآخرين، ط ١،
الشارقة، (د.ن) ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان
٥	مقدمة
٩	المبحث الأول: معنى التفاؤل ومشروعيته وأهميته
١١	المطلب الأول: معنى التفاؤل
١١	الفرع الأول: معنى التفاؤل في اللغة
١٢	الفرع الثاني: معنى التفاؤل في الاصطلاح
١٣	المطلب الثاني: مشروعية التفاؤل
١٧	المطلب الثالث: أهمية التفاؤل
٢٩	المبحث الثاني: أسلوب القرآن في تربية النفوس على التفاؤل
٣٢	المطلب الأول: إيراد نماذج من تفاؤل الصالحين
٤٤	المطلب الثاني: إشاعة التفاؤل في وقت الأزمات والمعضلات
٤٥	الفرع الأول: التفاؤل في حال تكالب الأعداء على الأمة وقلة المعين
٥٥	الفرع الثاني: التفاؤل في حال الفقر وضيق العيش

٦٦ الفرع الثالث: التفأؤل عند فقد الأولاد
وموتهم

٨٠ الفرع الرابع: التفأؤل عند عدم الوفاق
الزوجي

٨٢ الفرع الخامس: التفأؤل بمغفرة الله وعدم
اليأس من رحمته

٩٥ فهرس المصادر والمراجع

١٠٩ فهرس المحتويات
